وَكانَ اسْمُها سُورْيا

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2015/12 /5728

813.9
الرفاعي، ماجدولين فرحان
وكان اسمها سوريا – ماجدولين فرحان الرفاعي – عمان: دار فضاءات، 2015
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-795-0

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2016
جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق
وكان اسمها سوريا – ماجدولين فرحان الرفاعي – سوريا
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaat.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

ماجدولين الرّفاعي

وَكانَ اسْمُها سُورْيا

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى الحنونة التي عانقتني بحرارة صدرها، وغزارة دموعها

وأنا أدلف عتبة الغربة والشتات، كانت تدرك بأمومتها أننا

لن نعود مرة أخرى لملامسة منمنمات طفولتنا

وأماكن حبونا فتاريخ الانكسارات علمها

أن الخروج ليس بالضرورة أن يعقبه دخول،

إذْ خرجت هي مع طفولتها

من فلسطين يوما

ولم تعد..

إلى أمي

التي لم تمهلني حتى أعود إلى صدرها فغادرت الحياة

تاركة لي كل أبواب الفجيعة.

على معبر الوداع

لطالما سألت نفسي متى سألد الشام التي ما زالت تكبر في داخلي كجنين أسطوري الملامح، كلما مر يوم جديد في صحارى اغترابي القاحلة، يزداد سؤالي إلحاحاً، لكن صخب الحقيقة في كل مرة يرتفع ويرتد صداه في وديان صمتي فلا أكاد أسمع الإجابة المتكورة على نفسها وهي تتمتم بلغة غريبة لا أفهم مفرداتها، ويبدو أن الشام ستبقى تتربع بكامل جلالها في شراييني وأوردتي، في صميم القلب وبين تلافيف دماغي وتبني أمجادها ما بين بطيني الأيسر وجاره الأيمن وتمد شرياني الأبهر جسرا فوق نهر المعجزات.. كان لوداع الشام نكهة الفقد اللاذعة، ورائحة اللوعة المالحة لأم فقدت وحيدها، ومرارة العلقم اللاذعة..

كان لوداع الشام لحن جنائزي حزين وكان العازف قلبي وثلة من دموع القهر التي أنهكتني، كنت مسجاة في تابوت الوداع تلوح لي شارات المرور وجسور المشاة وأنفاق السيارات، وبخور احتراق الماضي بصوره وعطوره وذكرياته بحلوها ومرها، كانت عجلات السيارة وهي تقطع الطرقات

والشوارع في ذاك الصباح البعيد تلوك قلبي بأسنانها الحادة وتمضغه كقطعة لحم شوتها الخيبة وقلبتها على نار الانكسارات همومنا، أصرخ فتطعنني التنهدات وتدمي قلبي الآهات، لم تسعفني دموعي يومها فتمردت على العيون واستعصى الدمع عن الهطول، وجفت المآقي والجفون، وشاب شعر الرموش، فالرغبة بالفرار من أتون محرقة ضياع البلاد وضياعي خلف حديد الزنازين وفي ظل ظلماتها ودهاليزها التي ضاقت والتفت على أعمارنا كأفعى تضغط حتى الموت، خوفي على ابنتي التي لم ينبت ريشها بعد من ضياع محتمل كان هاجسي الذي جفف كل دمعة فكرت بالانهمار من عيوني الذابلة المتطلعة إلى النجاة، ولا أنكر بأن قلبي كان يندب ما آلت إليه أحوالنا نحن أبناء الوطن المطرز بالياسمين، وعلى خيبة شعب ظل ما يقارب نصف قرن تحت حكم الجلاد وأفرعه الأمنية، وعندما بايعناه بالحرية والدم باعنا باستقطاب الغرباء بأسلحتهم وطائراتهم وحقدهم ومصالحهم القديمة الجديدة، كان الألم يعتصر قلبي ونحن نهم بالسقوط في بئر اغتراب طويل..

طويل أوله تلك المفاتيح التي نحملها لبيوت بلا أسقف أو جدران، لكنها مفاتيح تاريخ طويل لذكرياتنا، وملاعب طفولتنا وفتوتنا، ذكريات مدارسنا وكتبنا ومغامراتنا الغرامية، ورسائل الشوق المدسوسة بين دفتي كتاب، والورد المجفف والمناديل المعطرة، وأفراح النجاحات وحفلات

الخطوبة والزواج، والاحتفاء بالمواليد الجدد، بختان الأولاد وثقب آذان البنات لتزيينها بالحلق، هي منمنمات الأزمنة التي عشناها فوق أرض بلادنا بحلوها ومرّها، بحزنها وفرحها، كل تلك الثروة سنخسرها دفعة واحدة وسوف يختزلها قرار قبيح اسمه اللجوء إلى بلاد غريبة يقال أنها مستعدة لاستقبالنا بكامل جراحنا وأوجاعنا إن استطعنا بطريقة أو بأخرى قطع البحار والفيافي وتجاوز معابر الخوف وحواجز التفتيش بعسكرها وجندها وبنادقها والنظرات المشككة بأن قنبلة ما تحت لسانك ستطيح بهم، نهرب من حرب حمقاء لم تفرق في فظاعتها بين مؤيد ومعارض، وندلف عالم المجهول بكل فتنته ولغاته وتحقيق أهدافه من موتنا في بلادنا وحياتنا في بلادهم..

في الطريق الدولي الممتد من دمشق إلى بيروت كنت بكل عزيمة مشاعري وولعي أشد الشام خلفي بياسمينها، وعرائش عنبها، بنارنجها وليمونها، بدفلتها ولبلابها، بأزقتها المتعرجة بأسواقها القديمة، وحمّاماتها الأثرية بكل ما يفوح منها من أبخرة الماضي وعبق صابون الغار الحلبي، وصبغة شعر العجائز وطلاء أظافر الصبايا، ورائحة المناشف الرطبة، وأدخنة النراجيل، كانت رائحة الشام التي رافقتني خليطاً من عدة روائح متناقضة حينا متآلفة أحيانا كنت أتنشق رائحة الفل الدمشقي، والورد الجوري وزهر الليمون، والبنفسج والزنبق البلدي وضمم النرجس التي تباع على الأرصفة، ورائحة

الخبز، ومناقيش الزعتر، الكراوية، والقرفة والزنجبيل، والبهارات المخلوطة بعناية، وروائح مسلتزمات السحر والشعوذة التي تباع للعشاق حينا وللكارهين أحيانا، حتى رائحة الحناء التي لا أحبها ذبت شوقاً إليها في تلك اللحظات المثقلة بالهموم والانكسار في طريقي إلى عالم آخر بعيدا عن مراتع لهوي وعن أحبتي وأهلي وجيران الحي وزملاء العمل وشركاء الحصار والجوع، وقطع الكهرباء والماء والاتصالات، بعيداً عن لبلابتي ونرجساتي الحبيبات بعيدا عن المساجد وأصوات المآذن وأذان المغرب في رمضان، ولمة الأهل على الإفطار والسحور والتمر هندي ومنقوع السوس، بعيدا عن أجواء الخير وتبادل الأطباق المنوعة بروائحها الزكية قبيل المغرب، بعيدا عن صلاة العيد بجلال رهبتها وجمال تهليلاتها، عن المعمول وكعك الأعياد وخبزها وحلوياتها وملابس الأطفال وألعابهم وأسلحتهم البلاستيكية التي صارت حقيقية محشوة بالرصاص ذات زمن أغبر، سنكون بعيدين عن أجراس الكنائس في الآحاد والشعانين وأعياد الميلاد وزينة أشجارها ومغاورها، وانتظار بابا نويل وهداياه لأطفال ما زالت البراءة تسكن طفولتهم، سنكون بعيدين عن عيد الفصح بجمال زينته وبيضه الملون فرح الطفولة.

هاأنا بكامل خسائري وجراحي وطعم الظلم في فمي أرحل دون أن ألتفت خلفي فالبنادق المصوبة باتجاهنا تحث خطانا فنسرع بالعدو تسابقنا ظلالنا الهاربة بكل ضخامتها خوفا من حماقة قناصتهم المتربصة بكل خفقة قلب، خوفاً من طيش رصاصهم الذي قد يثقب أي جمجمة بلا أدنى معرفة باسم صاحبها أو هويته إن كان مع أو ضد فالموت أحمق كبير..

ها أنا بكامل حزني وأوشحة خيباتي أمتثل لأوامرهم بالوقوف، وأنخرط في ازدحام المعبر الحدودي أتذوق من جديد طعم الذل وعلقم الانتظار الطويل تحت أشعة شمس لاهبة على غير عادتها في مثل هذا الوقت من كل عام، نقف مسربلين بالقهر في انتظار دورنا في ختم أوراق العبور..

كنت أتابع تعابير الوجوه المتلاصقة المتراصة أمام زجاج نوافذ رجال الأمن الذين يتابعون عملهم بتأفف واضح وعصبية مبالغ فيها، كان اليأس السمة الأولى التي تشترك بها معالم تلك الوجوه الموجوعة المكلومة، ثم الحزن والدهشة وانكسار النظرات الدامعة، وضياع معالم البهجة وارتسام تعاريج الخيبة على الجباه المتعبة، كنت أقف بين الجموع تلبسني الخيبة من قمة حزني حتى أخمص كآبتي وظللت أسأل إلى أي مدى سيأخذنا الغياب في المحطات القادمة، رغم فرحي بانتهاء معاملات التخليص بسلام، جلست بعد آخر

حاجز ببضع خطوات وبكيت حدّ النحيب، شعرت في تلك اللحظة بالعري حتى من ورقة التوت، عارية من وطن لبسته ولبسني سكنته وسكنني، شعرت بأنني على شفا هوة سأسقط فيها لا محال.

في الطريق إلى المطار كنت أرسم مخطط رحلة طويلة جدا لا أعرف تفاصيلها بعد، ستكون مرة برا ومرة بحرا وفي مرات أخرى قد تكون سيرا على الأقدام صوب المنافي البعيدة التي ستطلق عليّ فور وصولي لقب: لاجئة سورية.

(1)

وجهي في المرآة يسخر مني، فكلما أمعنت النظر بتفاصيله وبشحوبه وهالاته السوداء كان يلوي شفتيه حنقا، وعتباً ويسأل بصمت: أهذا وجه امرأة شابة ما زالت في بداية ربيعها الرابع أيتها الحمقاء؟ وفي كل مرة كنت أستخف بسؤاله فأبصق عليه وأدير وجهي ثم أبدأ بنشيج طويل ينتهي بنومي العميق أو بغيبوبتي كما يحلو لأمي أن تسميها، إذا بعد كل استيقاظ كانت تخبرني أنّي كنت في غيبوبة منذ أول أمس!

غيبوبة يا لهول التسمية التي لا أشعر بأبعادها فقد تعبت وصار النوم بساط الريح الذي يأخذني بعيدا عن واقع بشع مر لا بشائر خير فيه ولا أمل في ضمة فرح تشدنا إلى الحياة، ثم أي حياة هذه التي نحترق بها ونذوب كذبالة الشموع التي أشعلنا منها في ظلام الحرب ما يفوق إشعال شموع عشرات الكنائس، يقال أن المغفرة عن الرذيلة لا يحتاج إلى اكثر من شمعة واحدة واعتراف بالذنب بقلب نظيف ووعد ببداية خالية من الأخطاء كي يشعر المرء بالراحة والسكينة النفسية العميقة التي تدفعه إلى السير في الحياة قدما، ولكن من سيغفر لهذه الحرب الحمقاء التي لا تغتفر.

ما زالت الكهرباء مقطوعة وأصوات المولدات تصم آذان الليل وتجرح صمته يضاف إلى صخبها أصوات شباب الحي والأحياء المجاورة الذين داوموا على التكبير كلما انقطع التيار، فها هي أصواتهم الآن تجوب الحي أحدهم يصيح بصوت عريض: تكـــــــــــــــــــــبير.

ترد عليه جوقة أصوات مختلطة طفولية وشبابية وبعض الأصوات النسائية: الله أكـــــــــــبر..

فتتحرك الدبابات الواقفة على مداخل الأحياء مع عناصرها وكشافات الأضواء ويبدأ إطلاق الرصاص لإخراس الأصوات الثائرة فتصمت الهتافات ويختفي الجميع داخل البيوت ريثما يدور ضوء الكشافات على الأسطح والشرفات وبعد انسحابهم تعود الهتافات والتكبير من جديد حتى عودة الكهرباء وما أن تعود حتى يضج الحي بالصفير والتهليل وتبدأ الحركة بشكل سريع تعمل مضخات الماء، الغسلات، الحمامات، التلفزيونات، شواحن الموبايلات، تفوح روائح الطعام المؤجل طبخه بسبب غياب الغاز عن معظم البيوت، إنها حالة حرب إذ ماتت كل معالم الحياة فيها وانقطعت كل سبل العيش الكريم واللاكريم، إنَّها مرحلة موت سرير لكل من أصرَّ على البقاء أو عاندته الظروف ولم تتح له فرصة بيع بيته الذي بناه لبنة لبنة على مدى كل سنوات عمره لدفعه لأحد سماسرة تجار البشر لتأمين مغامرة تنقله

بعيدا عن تلك الملحمة التي ستصبح خالدة وسيوثقها التاريخ في سجلاته الصفراء.

سيوثق ذات التاريخ موت ثلثنا بوسائل لم نخترها لكنها تنوعت بفعل الظلم وتحكم امبراطورية دكتاتورية برقابنا مما دفعنا دفعا إلى الهجرة واللجوء إلى جميع دول العالم حتى تلك البلاد التي كنا ذات أمان نضحك على أسمائِها مدن في مجاهل إفريقيا أو في أقاصي أوروبا وأسيا أو إلى خيام موحشة في الدول العربية المجاورة التي خافت من تدفقنا فبدأت بطلب فيز لدخول أراضيها بعد إغلاق حدودها في وجه جيرانها الذين لاذوا بها من أتون حرب شرسة أحرقت الأخضر واليابس، بينما أحجمت الخليج والسعودية عن استضافة اللاجئين بحجج مختلفة، يالله كم كنت واسعة القلب يا سوريا مترامية الحب ضاجة بأحلامنا وضحكاتنا كريمة مع كل غريب حطَّ رحاله فوق أرضك أو استجار بك هربا من جحيم كان يعيشه أو موت كان يهدده.. لقد شوهتنا الحرب وقتلت في دواخلنا كل إحساس بالحياة والحب، فالحب مثل الفطر لا يثمر حين تجف المواسم ويحبس الغيم مطره.

(2)

طنين أذني والعتمة والبرودة ورطوبة المكان التي تنخر مفاصلي وتقتات من بقايا أعصابي التي مورس عليها أقسى أنواع الإرهاب والتنكيل، لم تكن مخيفة أكثر من ذاك الترقب الحذر من فتح باب الزنزانة من جديد وسحلي إلى مشرحة الاعترافات والتعذيب المميت إذ ما زالت جروحي متقرحة تصرخ وجعا وينزّ صديدها لزجا سميكا وما زالت أصوات كابلاتهم الحديدية وعصيهم الغليظة وهي تضرب ظهري تصم أذني وتأكل حشاشة كبدي وتحيلني إلى ورقة شجر خريفية آيلة للسقوط أمام أول هبة ريح جديدة..

المأساة أن جلسات تعذيبهم الموجعة المكررة لم تستطع انتزاع اعترافات إضافية فقد اعترفت بكل ما أعرفه وما لا أعرفه منذ أول ثلاث جلسات استخدم فيها الشبح (التعليق من الأرجل مع ترك الرأس مدليا) والكهرباء، والتغطيس في الماء البارد، وشد الشعر وبساط الريح، لقد أفرغت كل ذاكرتي بين أيديهم دفعة واحدة لعل اعترافي يشفع لي فيركلونني عدة ركلات ثم

يلقون بي في زنزانة مشتركة على الأقل هناك سألوذ بأصوات لهاث زميلات العذاب والموت البطيء وصعود الروح إلى باريها قطرة قطرة.

لم أستطع إقناعهم أنني لست مناضلة كما يظنون أو ناشطة سياسية و أنني لم أشارك في أي عمل سياسي أو ثوري أعتد به أو يحسب لي إلا بعض أخبار المظاهرات وفيديوهات الشهداء ومراسم وداعهم ودفنهم والتي كنت أنشرها في المواقع والتنسيقيات الثورية، إذ كانت رقابة أهلي علي شديدة وغير مسموح لي المشاركة في أي نشاط خارج البيت، قيود أهلي الصارمة تلك كانت خوفا من المجتمع والقيل والقال، فالمطلقة حسب اعتقادهم ومفاهيمهم مطموع بها وبالتالي فهي عرضة للافتراس من المجتمع والذئاب البشرية، لذلك وضعت تحت الإقامة الجبرية في البيت لا أبرحه إلا للضرورة أو برفقة أمي حتى يفرجها الله ويأتي مشتر جديد ليشتري امرأة مطلقة بنصف السعر لأنها عرفت رجلا قبله فض بكارتها ولم يترك لمن بعده هذا الشرف العظيم، رغم أن معرفتها بذاك الرجل مؤطرة بالشرع والدين والقانون.

وفي حالتي يمكن أن يندرج زواجي تحت بند الاغتصاب الحلال، إذ كانت علاقة زوجي بي أشبه ما تكون بنزوة رجل ثارت غرائزة فقضى وطره من امرأة وثّق اسمها في دفتر عائلته فأصبحت ملكه وحرثا له كما كان يكرر

زوجي عصام على مسامعي ومن حقه التمتع بها كما يشاء، وبعد الانتشاء وإنهاء وصلته الجنسية، يلبس وجه السيد من جديد ويبدأ بمعاملتها كجارية عليها أن تعمل لخدمته ليل نهار تطيع وتنفذ أوامره دون تأفف أو اعتراض وكلما ثارت رغبته عليها أن تتزين وتتعطر وتلبس الملابس المغرية المثيرة وتتحول إلى عاهرة تفيض مجونا وشهوة وإثارة لإشباع شهوات ذلك الرجل الذي كان طوال النهار سيدها بجبينه المقطب وكلماته الخشنة الجارحة دون الاهتمام بما تريده أو ترغبه، لذلك لم أشعر طيلة مدة زواجي القصيرة من عصام بوجود رجل إلى جانبي، إذ لم أشعر بأية عاطفة تجاه ذلك الرجل الذي أقنعتني أسرتي بأن علي القبول به رغم عدم ميولي له، وبرودة مشاعري تجاهه، ولم أكن أرى في عصام أية صفة من صفات فتى أحلامي الذي رسمت له صورة في مخيلتي منذ مراهقتي ذاك الشاب الرياضي الأسمر الطويل، أنيق المظهر ابتسامته شمس وضحكته قمر، كان عصام ببشرة بيضاء وعينين زرقاوين وشعر مجعد أشقر، طوله متوسط ممتلئ الجسم، دائم العبوس لا يتحدث كثيرا، وإذا اضطر للنقاش يغضب بسرعة ثم يستغفر الله ويصمت، أكدت لي أمي عندما أخبرتها بأن الحب يأتي تباعاً مع الأيام والمعاشرة والكلام اللطيف، فقد حرصت على إقناعي والقبول بالزواج من ابن خالي كي تطمئن على ابنتها التي راحت تكبر أمامها فيستقيم عودها وتنهض قبابها ويلتف جسدها ويفيض بالجاذبية والإغراء، دون أن يطرق

خاطب بابها رغم همهمات الشباب وغزلهم وملاحقاتهم التي خافت أن تفضي إلى علاقة حب مع شاب لا تناسب مواصفاته تطلعات أهلي في البقاء بعد الزواج قريبة منهم.

فعدم وجود ابن ذكر جعلهم يتمسكون ببناتهم أكثر ويخافون من ابتعادهن عنهم، وزاد خوف أمي أكثر عندما سكنت في حينا عدة أسر عراقية بعيد الغزو الأمريكي للعراق، والذي تسبب بهجرة آلاف العراقيين وهجرتهم إلى كل العالم وكانت حصة سوريا لوحدها مليون ونصف عراقي لدرجة أن معالم سوريا بدأت تتغير بعد فتح هؤلاء محال ومطاعم تبيع مأكولاتهم وحلوياتهم الشعبية وكل ما يتعلق بعاداتهم وتقاليدهم. وفي الحقيقة كنت مغتبطة بهذا التجديد في حياتنا وحاراتنا وراح ذلك الفنان الأربعيني الذي سكن مع والدته وأخته في الطابق الأرضي من البناء الذي نسكنه يلفت نظري بشعره الطويل الموشح بشيب أبيض خفيف يزيد وجهه بهاء ووقارا وجاذبية، لا أدري لماذا نعشق الغرباء بسرعة أكبر من عشقنا لأبناء بلدنا، ففي ذلك الوقت سمعت عن قصص حب كثيرة بين سوريات وعراقيين تكلل بعضها بالنجاح ومن ثم الزواج، والبعض الآخر فشل لأسباب مختلفة أحدها فقر الشباب وعدم إيجاد فرص عمل تضمن لهم مستقبلهم وتؤمن لهم تكاليف الزواج والحياة؟!

بعد سكن محمد العراقي وأسرته بعدة أيام دعتهم أمي بطلب من أبي إلى وجبة إفطار رمضاني من باب الواجب الإنساني لأناس شردتهم الحرب من بلادهم فطلبوا الحماية في بلادنا ولاذوا بها. على المائدة كنت أشعر بالخجل ويحمر وجهي وتلتمع عيوني حين أضبط نظراته وهي تغوص عميقا في تضاريس وجهي وجسدي أثناء سكب الطعام والشراب لهم، بينما راحت والدته تستطرد في سرد أخبار الحرب في العراق والقتل على الهوية ومن ثم دخول الجيش الأميركي بدباباته وأسلحته وعن سجن أبوغريب الذي فاحت رائحة الجرائم به وعن السيارات المفخخة التي لا يعلم إلا الله – كما قالت – في أي تجمع ستنفجر، وعن هبوط سعر الدينار العراقي الذي كان مزدهرا في زمن مضى، كانت منهمكة في الحديث عن الفظاعات التي اضطرتهم لترك العراق بدجلتها ونخيلها وطيب العيش على أرضها وتؤكد أننا قد لا ندرك حجم المأساة لأننا لم نجرب يوما معنى ضياع الوطن، وفي الحقيقة لم أكن مهتمة بما تقوله بقدر اهتمامي بابنها الذي كان يصوب نظراته النارية المشوبة بالرغبة باتجاهي فيحرك الراكد من مشاعري ويلعب صوته حين يتحدث بنبرته الواثقة على أوتار قلبي فتتمايل دقاته طربا، مرات قليلة ومتباعدة تكاد تعد على الأصابع التي جلسنا بها قبالة بعض خلال الزيارات المتبادلة والمعايدات، لكن أمي استطاعت ضبطت خيوط الإعجاب والنظرات المتبادلة بيننا فاستعدت لرفع السواتر وإنهاء ما لم يبدأ بعد من علاقة بدأت معالمها تتضح، فسألت محمد في إحدى الزيارات:

- لماذا لم تتزوج حتى الآن يا بني ومن هم في سنّك قد تزوجوا منذ زمن بعيد؟

أجاب محمد بنبرة حزينة:

- أه يا خالة كيف أصف لك وجعي والكلمات قاصرة أمام فجيعتي، تزوجت بعد قصة حب طويلة وبعد محاولات ووساطات كثيرة استمرت ست سنوات لإقناع أهلها وهم من شيعة العراق بالموافقة على زواج ابنتهم من شاب سني، ورغم أنها إعلامية ولها شخصيتها المستقلة لكن موافقة أهلها كان من أهم شروطها فالتزمت بذلك واستطعت بعد نضال مرير انتزاع موافقتهم.. قبل أن يتدخل أبي في الحديث على غير عادته نهضت من مكاني وجلست على مقعد بعيد أسترق السمع دون أن يلمحوا معالم خيبة الأمل التي شعرت بها بعد سماع خبر زواج محمد، إذ لم تكتمل فرحتي بعد.

قال أبي موجها كلامه إلى محمد:

- الله يرحم ترابك يا صدام ضاع العراق بعدك، يا بني كلنا مسلمين القرآن كتابنا ومحمد رسولنا، والله هذه الطائفية المقيتة والتفرقة في بلادكم لم تظهر إلا بعد احتلال العراق وتعيين حكومات عميلة وصلت على ظهور الدبابات الأميركية، صدقني يا محمد هنا في سوريا لا توجد عندنا مشاكل من هذا النوع لا طائفية ولا هم يحزنون شيعة وسنة، إسلام ومسيحية، كرد وعرب، جميعنا لنا الحق في العيش المشترك على هذه الأرض السورية.

شعرت أمي أن أبي سيستلم دفة الحديث ويوجهه صوب السياسة التي لا تحبها فقاطعته بحدة:

- اتركنا من السياسة يا رجل ألا يكفي أنك طوال النهار والليل تتابع النشرات الإخبارية والله صرنا نهذي بحسني مبارك والقذافي وحسن نصر الله، وأخبار الزلازل والبراكين..

التزم أبي الصمت وعاد لمتابعة التلفاز فعادت أمي لربط خيوط الحديث فقالت ضاحكة:

- إذا انتصر الحب وتزوجت حبيبتك على بركة الله يا بني وأين هي الآن؟ لماذا لا تسكن معكم؟

أجاب محمد بنبرة مشوبة بالحسرة والتوجع:

- رحمها الله لقد قتلت بدم بارد بعد زواجنا بسنة ونصف إذ تم اختطافها بسيارة مظللة ومن أشخاص ملثمين من أمام مقرّ عملها وعلى مرأى الجميع في وضح النهار دون أن يحاول أحد إنقاذها خوفا من رشاشاتهم الأمريكية الحديثة، وبعد أيام وُجدت زينب مقتولة ومشوهة ولم أعرف حتى الآن سبب خطفها ومن خلفه، إذ لم يتصل بي أحد لطلب فدية، ليتهم فعلوا يا خالتي لكنت فديتها بعمري ودمي.

صمت محمد قليلا ثم أخرج من جيبه محفظة بنية قديمة فتح جيبها الخارجي ثم اقترب من أمي وقال لها:

- انظري كم هي جميلة ومن عينيها تشع الطيبة والإنسانية، أعداء الإنسانية يقتلون كل ما هو جميل في الحياة ويجتثون الأمان.

- رحمة الله عليها يا بني حورية من حواري الجنة عوضك على الله، والحي أبقى من الميت، لن تنساها حتى تتزوج من جديد ألا تفكر بالزواج؟ فتح محمد فمه يريد الإجابة عن السؤال لكن والدته قاطعته بسرعة وبصوت مرتفع قالت: سيتزوج طبعا ابنة خالته الدكتورة أسمهان في الدانمارك، تموت عليه، وتنتظر أن يضع عقله برأسه ويوافق على السفر، مسكينة خاب أملها عندما ارتبط بزينب وها هو القدر سيجمعهما من جديد.

نظر محمد إلى أمه نظرة عتب ثم قال بحزم:

- صدقيني لا امرأة مهما كانت مواصفاتها تستطيع أخذ مكان زينب في قلبي فقد احتلته في حياتها وأحرقته بمماتها..

وكانت هذه زيارتهم الأخيرة إذ قطعوا كل اتصال بنا ثم تركوا الشقة التي كانوا يقيمون بها دون معرفة الأسباب لهذا التحول، ربما أحدها خوف السيدة من ارتباط ابنها رغم تأكيده بأنه لن يتزوج ثانية بفتاة غير ابنة اختها التي تقوم بالتنسيق معها للزواج بمحمد.

لقد أسفر اغتصاب عصام الحلال لي والذي أقل ما يمكن وصفه بالمتوحش عن حمل متعب عانيت منه كثيرا إذ كانت فترة الوحام صعبة رحت أستفرغ يوميا وأكره الطعام والشراب، وزاد خلالها نفوري من عصام فأكملت أشهره وأنا في بيت أهلي، إذْ كان طلاقي بعد ستة أشهر من الزواج الذي أرهقني وفتت روحي فلم أحتمله فتركت له البيت قبل أن يبدأ بطني بالانتفاخ بشكل كبير، وكم حاولت في البداية إسقاط الجنين للتخلص مما قد يربطني بمن شوه أيامي بعنجهيته وتسلطه، لقد ترك زواجي من عصام أثره البالغ في نفسيتي وقناعاتي وصرت أشعر بالنفور من جميع الرجال ويعاودني كابوس راح يتكرر في معظم الليالي حتى بعد طلاقي، فأرى عصاماً يقوم باغتصابي، وجهه كان محروقا ومشوها، فأستيقظ من نومي مرعوبة، كانت المسكينة أمي تأتي من غرفتها مفزوعة على صوت صراخي وبسملاتي وتعويذاتي فتجلس على طرف السرير وتبدأ بالبكاء ربما تعاطفا معي أو ندما، لأنها أقنعتني بالزواج من ابن شقيقها رغم معرفتها بعدم قناعتي بهذا الزواج، صحيح أنني لم أرفض هذا الزواج كما يجب، ولكنني لم أكن متحمسة له كثيرا لكنه كان بالنسبة لي قارب نجاة للخلاص من تحكم أسرتي بعقليتها القديمة في التربية التي كان ديدنها المراقبة والملاحقة وعدم ترك الفتاة على حريتها للمحافظة على شرف الأسرة على الأقل من كلام الناس والمجتمع، إذْ كانت الرقابة تتجاوز الدخول والخروج ومعرفة منبت

الصديقات وحقيبتي المدرسية واستراق السمع من خلف الباب عندما تزورني إحدى صديقاتي. بل امتدت لتشمل الرقابة على الكتب والروايات التي كنت أتسلى بقراءتها في العطل المدرسية بشغف بعد مرورها على حاجز رقابتهم، فلربما وقع تحت يدي أحد الكتب الأجنبية المفسدة للأخلاق أو كتب الحب فأصاب بلوثة العاطفة وأقع في الحب في يوم لا يحمد عقباه..

كان زواجي من عصام محاولة لتكوين عالم جديد خاص بي، يا لحماقة الأنثى التي لا تدرك أن الزواج بدون حب جحيم وأن الاقتران برجل تكرهه انتحار.

(3)

يوم السجين أطول بكثير من ساعات اليوم خارج الزنزانة، وخارج غرفة السجن الانفرادي، إذ كان اليوم في داخلها يمضي ببطء ويمشي كالسلحفاة وأن ضجيج السكون أكثر جلبة من قطار شحن ثقيل يجر خلفه عشر مقطورات محملة بالحديد. كنت أحاول دائما إبقاء عقلي سليماً فأهرب بأفكاري خارج حقارة الزنزانة الصغيرة العفنة والتي أتوسد بلاطها الصلب واتلفع ببردها أفأعود للماضي أستحضره بدقائق تفاصيله، حياتي شريط سينمائي يمر أمامي طيلة الوقت الذي لا أعرف ليله من نهاره ولا ساعاته وثوانيه، وفقدت بوصلة الاتجاهات في هذا القبر المظلم الغارق في صمته حد الموت، وحده كان أنيني وأصواتهم في اللاوعي يشرخ هذا الصمت بين الفينة والأخرى فأسمع صوت ابنتي تبكي وتلح في طلبي وتسأل أمي عن سبب غيابي، سمعت نحيب أبي وتهديده بقتلي عندما أعود لأنني لوثت سمعته بين الناس..

أيقظني صرير باب الزنزانة من شردوي، فشعرت بقشعريرة هزت كل خلية من جسدي، تكورت على نفسي كجنين في رحم أمه ورحت أرتجف بشدة، ورقة أنا في وجه الريح أتشبث بالمعوذات التي أرددها في داخلي وكلي أمل بالنجاة مما ينتظرني.. اقترب السجان مني كنت أسمع وقع خطاه فأزداد تكورا فأخفي وجهي بين ركبتي، ثم لمس كتفي وهزه هزتين فرفعت رأسي لكنني لم أتبين شكل وجهه أو ملامحه فالظلام لم يتح لي متعة تأمل وجهه القبيح، وبصوته الكريه الذي يشبه فحيح ثعبان سام أمام فريسته، وبعد أنْ أحاطني بكلتا يديه ورفعني عن الأرض قال: تعالي لا تخافي..

كانت قواي خائرة جدا بالكاد أستطيع السير وبخطوات وئيدة، لكنه تبرع لمساعدتي كان يحاول دفعي للأمام مع رفعي قليلا عن الأرض، بعكس المرات السابقة التي كان يجرني فيها خلفه فأمسح بملابسي وشعري كل قذارة الممرات، لم تكن المسافة طويلة فبعد عدة أمتار هاجمني الضوء الساطع المنبعث من غرفة يفوح من بابها الدفء وروائح طعام وشراب وسجائر وهمهمات تختلط ببعضها حتى ليظنّ المرء أنه أمام باب ناد أو ملهى ليلي. دفعني السجان بكلتا يديه إلى داخل الغرفة، لم أستطع فتح عيوني في البداية من قوة الضوء الذي عشت بدونه أياما، ثم بدأت أشاهد ما حولي: رجلين بملابسهما العسكرية يجلسان على حافة سرير عسكري حديدي عليه بطانية

بلا ألوان. عمر كل منهما لا يتجاوز الثلاثين عاما، وأمامهم منضدة صغيرة مغطاة بالجرائد وفوقها بضعة صحون وكؤوس، وخلفهم تماما مشجب معلق عليه بضع قطع من الملابس وكرسي خشبي، سمعت صوت الباب خلفي يقفل، التفت فرأيت لأول مرة وجه سجاني، له وجه قبيح شيطاني الملامح، وجسد ضخم كداييناصور كان السم يسيل مع لعابه وهو يضحك ويقهقه أثناء اقترابه مني وترحيبه بوجودي على طريقة الوحوش الآدمية، ثم بحركة سريعة دفعني إلى السرير فوقعت في أحضان الرجال الجالسين عليه ثم اقترب مني وبصوت قميء بنبرة ساخرة قال:

- أهلا بعاهرتنا الحلوة، سنجعلك تختبرين الرجال على حقيقتهم يا عرعورية، نحن أفضل من شيوخ النكاح وزواج الجهاد. وقبل أن يبدأ حفل التهامي صرخت بصوت جرح جميع شراييني وفجر قلبي كقنبلة موقوتة:

- مشان الله لا، كرمال الله لا، أبوس رجليكم لا، يستر على حريمكم استروا علي.. قهقه الجميع بصوت واحد وقال أحدهم:

- مشان الله؟ إيه خلي الله يجي يدافع عنك يا شرموطة..

ليلة كاملة تناوبوا على نهش جسدي بوحشيه وقذارة. وكلّما حاولت دفع أحدهم رغم ضعف حيلتي كانت الصفعات تنهال على وجهي وظهري وصدري.. وعندما يرتفع صوتي بالأنين والصراخ كان أحدهم يدس قطعة ملابس في فمي حتى ينهي الآخر مهمته، بعد عدة ساعات لا أدري عددها شعرت بقواي تنهار وصوتي بدأ يغيب وأنا أردّد بتوسل:

- خلص لك مشان الله خلص لك ما عندكن خوات؟

بدأت أستعيد وعيي وأسمع أصواتاً نسائية دافئة تهمهم بكلمات غير مفهومة وكأني أسمعها آتية من بئر عميقة لكنها شجعت صحوي و لا أدري إنْ كنت قد ابتسمت ولكنني شعرت بذلك إذ خلت لبرهة أنني خارج المعتقل، وقد أكون على سريري، وقد تكون هذه الأصوات أصوات أهلي.. يد نسائية معروقة تشبه يد أمي رفعت يدي اليسرى وضغطت على معصمي راحت تعد النبض لتتأكد من أني سأصحو من غيبوبتي، ببطء شديد فتحت عيوني إذ ما زلت موزعة الإحساس ما بين الصحو والنوم، فوجئت بعدة عيون دامعة ترمقني وتحدق بي بألفة، حاولت الجلوس ولكن خانتني قواي وتمرد عليَّ جسدي فبقيت ممدة على الأرض وسألتهن بصوت واهن:

- أين أنا؟

- يكسر أيديهم إن شاء الله أنت في الزنزانة لقد وصلت إلى هنا بحالة رثة ونصف ميتة أين قبضوا عليك؟

بصوت واهن ومتقطع أجبت:

- أنا موقوفة منذ شهر أو شهرين أو ربما منذ سنة لا أعلم بالضبط كل ما أعرفه ومتأكدة منه أنني كنت مرمية في زنزانة انفرادية..

بدأت ذاكرتي بالتقاط الواقع واسترجاع ما حدث معي من وحشية واغتصاب فأجهشت بالبكاء، وارتفع صوت نشيجي ونواحي، ضربت رأسي بكلتا يدي، شعرت بمرارة وجفاف في حلقي، تلمست جسدي، فشعرت بالقرف والتقزز من كل شيء وبالسخط من الحياة فصرخت بأعلى الصوت: "يا رب خذني وأرحني من هذا العناء".

تجمعن حولي جميعهن على شكل دائرة صغيرة مغلقة بسبب ضيق المكان، كل واحدة منهن كانت تقول ما لديها من كلمات رثاء تصلني مبعثرة هشّة كذرات غبار فأي رثاء يليق بفجيعتي؟!

ربّتت إحداهن على كتفي وقالت بصوت واهن وحزين:

- وحدي الله يا أختي.

تفحصت هيئتي فوجدت أنني بكامل لباسي لا شيء يدل على ما حدث، فحمدت الله لأنني لن أضطر إلى الحديث عن فضيحتي. ومن يدري ربما هن أيضا اغتصبن وصمتن على فضيحتهن.

ثم سألت نفسي أين الفضيحة عندما تغتصب المرأة من جلادها وفي مكان لا يمكن لأحد أن يخلصها من براثنه، الفضيحة صمتنا الجبان على استمرار اغتصاب حريتنا وتدجيننا أربعين عاما ونيفاً مع التصفيق وترديد الهتافات والدعاء لمولانا كي يطيل الله عمره.

كانت أصوات تعذيب المعتقلين في هذا المكان الجديد تُسمع بشكل واضح صرخاتهم كانت تجوب المعتقل موجعة ساخطة ثائرة ومنكسرة في وقت واحد، تضرب أصواتهم الجدران فتهتز الأسقف والأبواب، ثم يرتد صداها مزمجرا كريح صرصر، ولكنها في تلك اللحظة من تلف الأعصاب لم تحرك مشاعري. كنت أسمعها دون أن يرف لي جفن يبدو أنهم قتلوا كل ما في داخلي من أحاسيس ومشاعر حتى تلك المرأة التي كانت تسند ظهرها بظهري عندما جلست كنت أسمع صوت توجعها وعويلها كنت ألمس وجعها بجسدي دون أن ألتفت لكي أرى وجهها، مسكينة فقدت حملها أثناء التعذيب، هذا ما أخبرتني به فيما بعد، حاولتُ تغيير وضعيتي في الجلوس لكن الألم في الجزء الأسفل من جسدي منعني فصرخت بشدة، ثم طلبت المساعدة منهن حتى استطعت تعديل جلستي وصرت وجها لوجه

معهن، وجوه متعبة شاحبة لشابات صغيرات بمثل سني وأصغر، ووجوه أخرى لسيدات بأعمار مختلفة تغضنت ملامحهن وزادها الألم والحزن تغضنا، لكن ابتسامات مواسية ظهر شبحها على شفاهن مشفوعة ببضع كلمات عن الصبر والفرج قيلت لي دون قناعة منهن أو مني.. قالت إحداهن:

- أنا فاطمة وأنت ما اسمك؟

- أنا روان.. روان محمد.

- كان الله معك يا ابنتي وفكَّ أسرك، صبية بهذا الجمال تعيش في الزنازين عند أولاد الحرام والله حرام..

- هذا ما حصل يا خالة حسبي الله ونعم الوكيل، وأنت سيدة كبيرة ولا بد وأن لديك أبناء وأحفاد لماذا أوقفوك، ما التهمة الموجهة لك؟

- آخ يا بنيتي هل يحتاج هؤلاء إلى تهم كي يعتقلوا البشر؟ لقد دبروا لي تهمة التعاون مع الجيش الحر بعد أن أعدموا ابني ورفاقه إعداما ميدانيا، صحيح كنت أطبخ لهم وجبات الإفطار في رمضان لكنها خدمة من باب الشفقة عليهم، كلهم مثل أولادي مساكين كانوا يحرسون مداخل الحي خوفا من اقتحام الأمن وهم صائمون تحت حر الصيف.

ثم توقفت فاطمة عن الكلام فجأة وقالت وهي تبتسم:

- الله يرحم محمد ابني كأنه كان يعلم أنه سيستشهد لذلك كان يغني لي دائما هذه الأغنية وطفقت تغني بصوت أجش حزين ولهجة حورانية محببة:

أني طالع أتظاهر ودماتي بيديا

وان جيتك يما شهيد لا تبكين عليا

أجهشت فاطمة ببكاء مرير لبضع ثوان ثم مسحت دموعها بكم ثوبها وابتسمت ابتسامة باهتة وتابعت حديثها:

- وبعد عيد الأضحى في تلك السنة بعدة أيام اضطررت للذهاب إلى طبيب في المدينة لعلاج ركبتي التي أصيبت بشظية يوم قصفت طائرات النظام بيت أخي ببرميل ردمه فوق رؤوسهم، كنت ما أزال على بعد أمتار قليلة من بيته، وقبل وصولي بقليل دخلت شظية في ركبتي رمتني أرضا وطمرتهم جميعا تحت الأنقاض، أخي وزوجته وأولاده الثلاثة الله يرحمهم.

شهقت المسكينة بالبكاء ثم صرخت بصوت عال:

- رحمتك يا رب رحمتك.

نشفت دموعها بطرف حجابها هذه المرة وقالت دعيني أكمل لك قصتي:

- كنت في طريقي إلى الطبيب في المدينة عندما وقف الباص الذي أقله مع عدد من الركاب على أحد الحواجز الأمنية القذرة فقام عناصره بضرب السائق وشتمه بأقذع الألفاظ لأنه لا يضع صورة الرئيس على مقدمة باصه، ثم قاموا بتفتيش الحقائب ورؤية الهويات، وجنَّ جنونهم عندما قرأوا اسمي وكنيتي، إذ كان أكثر ثوار قريتي المطلوبين للأمن من أبناء عمومتي فأنزلوني من الباص الذي تابع سيره وبقيت واقفة لمدة ثلاث ساعات في غرفة الملازم المسؤول عن الحاجز، وهي عبارة عن عدد من قطع اللبن معمرة فوق بعضها وسقفها مغطى بخيمة عسكرية كالحة لم يسمح لي ابن الكلب بالجلوس وبقيت واقفة إلى أن وصلت دورية من ثلاثة عناصر في سيارة مدنية لم يتحدثوا معي قيدوني ثم وضعوا على رأسي ووجهي قبعة صوفية سوداء كي لا أرى المكان الذي سيأخذونني إليه، كنت أظن أنهم سيحققون معي ساعة ثم يطلقون سراحي بشفاعة سني الكبيرة، ولكن ها أنا منذ أكثر من سنة هنا دون محاكمة، اعترفت تحت التعذيب بكل شيء...

صمتت فاطمة ثانية ثم قالت:

- جهزي نفسك وشدي من عزيمتك بعد قليل موعد الذهاب للتبول.

(4)

جاييك الدور يا دكتور، الشعب يريد إسقاط النظام بضع كلمات نارية أشعلت فتيل ثورة تاريخية سيتحدث عنها أحفاد أحفادنا، خاصة إذا ما انتصرت واستطاعت بالفعل إسقاط النظام، وتغيير الحكم العلوي الدكتاتوري في سوريا، لم يكن يدرك رئيس فرع المخابرات في درعا أن طريقته في استفزاز الأهالي الذين طالبوا بالإفراج عن أطفالهم الذي كتبوا ببراءة على جدران المدرسة عبارات الحرية أن جملته القميئة القذرة ستضع سوريا على فوهة بركان ستندفع حممه لاحقا فقال بوقاحة:

- هاتوا زوجاتكم وسأجعلها تنجب لكم أولادا جدداً.

لقد انطلقت الثورة السورية من درعا في جنوب سوريا وكان العالم يتابع أخبارها على الأرض وعبر شاشات الفضائيات المختلفة وبخاصة أحداث أيام الجمع، حيث تخرج المظاهرات الشعبية السلمية فيقوم النظام بتفريقها بالرصاص الحي فيتساقط الشهداء واحدا تلو الآخر شباب في عمر الورد

يحملون شعارات الحرية والكرامة لم يخطر في بالي حينها أنها ستمتد لتشمل سوريا كلها.

وكان أبي يؤكد لي دائما بأنها لن تمتد وأن النظام سيقمعها بشدة لو كلفه قمعها دمار سوريا بالكامل كما فعل في ثمانيات القرن الماضي حين دمر حماه فوق رؤوس أهلها دون أن يرف للعالم المتحضر جفن حيث حاصر حافظ الأسد بالاعتماد على شقيقه رفعت الذي كان قد شكل سرايا خاصة به أسماها (سرايا الدفاع) حاصرت الدبابات حماه وضربتها بالمدفعية قبل دخولها وارتكاب مجزرة أودت بحياة عشرات الآلاف من أهالي المدينة بحجة ملاحقة الإخوان المسلمين فقتل ودمر ولم يترك حجرا على حجر، بالإضافة إلى التفجيرات التي كان يقوم بها في الحافلات المدنية والاغتيالات للعلماء لاتهام حزب الإخوان المسلمين، وقد اتهم أهل حماة جميعهم بالانتماء إلى هذا التنظيم الذي لم يلتف حوله إلا قلة قليلة، واستطاع حافظ الأسد القضاء على الثورة التي كانت ستغير وجه سورية لو نجحت كما يؤكد أبي، لذلك فإن خوفه القديم من دكتاتورية النظام جعله غير واثق من نجاح الثورة الجديدة ومتأكد من فشلها رغم أن فارق الزمن بينهما كبير.

مسكين أبي رغم خوفه الشديد وحرصه الدائم على عدم الخوض في السياسة أو معاقرتها وتوصيته الدائمة لنا بعدم الحديث أمام أي كان عن سلبيات النظام، فكتاب التقارير كثر والفروع المخابراتية أكثر وكان يردد دائما:

- الحيطان لها آذان لكن حرص أبي لم يقه شرهم فها هي ابنته تقع فريسة بين براثنهم فتعذب وتغتصب وينتهك عرضها وشرفها وكرامتها ظلما وعدوانا ودون أن تقترب من السياسة أو تعاقر عقاربها. فقد كان دوري بعد بدء الثورة بسنة نشر أخبار المظاهرات عبر الإنترنت ورفع الصور والفيديوهات إلى المواقع الإخبارية، وكنت أشعر بضحالة دوري أمام جرأة أقراني في التظاهر في الساحات العامة والحارات والاختباء من ملاحقة الدوريات ومن خلال عملي تعرفت على عدد من الناشطين والناشطات ورحنا نتبادل الأفكار والأخبار والحوارات، وأغلبها كانت تدور عبر (السكايب) وصفحات (الفيسبوك) والمجموعات، وعلى الهاتف ووسائل اتصاله في بعض الأوقات، أقرب صديقاتي كانت سمر ناشطة إعلامية من مدينتي ومتحررة، شخصيتها قوية بعكسي تماما، صرنا نكتب لبعض يوميا نشكو همومنا وخيباتنا وكنت أجد عندها الوقت الكافي لسماع قصصي ومشاكلي الأسرية، وفي المقابل رحت أصغي لهمومها ومشاكلها مع حبيبها الناشط الإعلامي كمال الذي لم تلتق به على أرض الواقع ولا تعرف في أي

مكان يقيم، لكنها أحبته عبر التواصل الإلكتروني، ولكنها ليست واثقة إنْ كان هذا اسمه الحقيقي أم الحركي، وصفته بالإنسان الطيب الحنون، لكنه غير مخلص في علاقته معها.

وسمعت أنه متعدد العلاقات مع الفتيات وخاصة الناشطات إعلاميا وتخاف ألا يكون مخلصا للثورة أيضاً. فالخيانة لا تتجزأ كما كانت تردد، لذلك بعد فترة وجيزة من صداقتنا توسلت إليَّ أن أساعدها في كشف نواياه بالتقرب منه وانتحال صفة فتاة بسيطة طيبة على النت معجبة به وبنشاطه الإعلامي ثم استمالته ومعرفة تفاصيل حياته ويومياته وعلاقاته، لم أستسغ الطلب واستهجنته، ولكنني كنت مبهورة بشخصيتها فرحت أنفذ طلباتها وأحقق لها ما ترغب به إرضاء لها وحفاظا على صداقتنا، وبالفعل أسست صفحة جديدة باسم وهمي أطلقت على نفسي فيه اسم (الحزينة). قبل كمال صداقتي ورحنا نتواصل بشكل يومي وفي أوقات مختلفة، وكانت سمر تراقب مراسلاتنا بعد حصولها مني على كلمة سرّ صفحتي المزيفة على الفيسبوك كي تعرف كيف سيتصرف معي كمال وماذا يقول، وهل سيغازلني أم لا.

كمال كما بدا لي أثناء مراسلاتنا شاب جاد في عمله لا يهتم بالصغائر من الأمور ولا يتحرش بصديقات صفحته ولا يكاتبهن، بدليل أنّه لم يرسل لي في البداية أية رسالة رغم أني شكرت له إضافتي في صفحته، ولكنه بعد فترة راح يستلطفني ويستسيغ اهتمامي ورعايتي له إذ كنت أرسل له كل صباح رسالة للاطمئنان عنه وسؤاله إن كان قد تذكر تناول إفطاره وأنَّ عليه أن يهتم بصحته، فالثورة تحتاج الأقوياء ويبدو لي أن الحنان شده إلي أكثر من أي شيء آخر فبدأ يكاتبني ويهتم بي ولم يشك لحظة واحدة بأنها لعبة قذرة من سمر وأني إحدى أدواتها، مع الأيام وثق بي جدا واعتبرني أقرب إنسان إليه، و كنت أظن أنني خدعت سمر بعدم اعترافي لها بأنني أنا أيضا وقعت في حبه وأنه سكن قلبي منذ أول حوار معه..

كان الصباح يبدأ بوردة إلكترونية مذيلة بكلمات رومانسية رقيقة تقطر حباً ولوعة. هو الثائر الذي كنت أشعر بصلابته وأكوام الهموم التي تثقل كاهله بسبب استشهاد أخيه وعدد من رفاقه وخوفه الدائم من الاعتقال والموت تحت التعذيب مثل ابن عمه وجاره وزميل دراسته ومعلم اللغة العربية الذي كان يدرسه في المرحلة الإعدادية، وسفر أهله إلى المانيا بعد نزوحهم داخل سوريا عدة مرات كما أخبرني من خلال محادثاتنا، لقد وثق بي كمال تماما وأحبني بصدق على مرأى سمر والتي أتساءل ماذا تنتظر أكثر

لإثبات خيانته أكثر من تلك المحادثات المدججة بالحب والموشاة باللهفة. كنت أرغب بمعرفة شعوره نحوها لكنني أحجمت وخفت إنْ سألته عنها بشكل مباشر أن يكتشف علاقتي بها ومعرفتي بعلاقته بها، لذلك قررت سؤاله عن علاقاته القديمة بشكل عام فقلت له ذات يوم:

- كمال حبيبي هل تحبني كما أحبك؟

- بربك يا حبيبة أهذا سؤال بعد كل ما بيننا؟

- لا تغضب كمولة فقط أردت التأكد من رقة مشاعرك تجاهي ولماذا تثق بالحب بلا ملامح أو تفاصيل فأنت لا تعرف عني أي شيء ولم ترني بعد؟

- كيف بلا ملامح ولا تفاصيل ونحن يوميا نتحدث لساعات طويلة عن كل شيء وأكاد ألمسك بيدي، الأرواح يا حبيبتي تحسن اختبار بعضها وأكاد أجزم أنك أجمل وأروع فتاة في العالم وأتمنى أن ألتقي بك كي أثبت لنفسي أن قلبي ذكي في اختياراته، ثم بالمناسبة أليس من حقي أن أراك أو أرى صورتك على الأقل؟ هيا أرسلي صورة طبيعية لك وأنت في المنزل بدون مكياج ليس بالضرورة الآن بل في أي وقت تجدينه مناسبا.

- بصراحة حبيبي كل لفّي ودوراني كي أسألك من باب الثقة هل أحببت قبلي أم أنني حبك الأول لا تغضب من سؤالي إنه الفضول لا أكثر؟

- يا لغباء السؤال يا حلوتي إنه سؤال فتاة عادية وساذجة أيضا، فهل هنالك شاب في عمري سيبلغ السادسة والثلاثين بعد أيام ولم يجرب الحب حتى الآن؟ أم تريدين أن أكذب عليك مثل معظم الرجال كي تشعري بالزهو أنك الحب الأول وأني كنت خارج المجرة كل تلك السنوات؟

- لا تصفني بالغباء رجاء، سؤالي فقط من باب العلم بالشيء، أردت معرفة كافة تفاصيل حياتك والحب أحد تلك التفاصيل، وما المانع أن تحدثني عن تجاربك القديمة وعلاقاتك السابقة ما دامت قد أصبحت طي الماضي؟

- الحب عهد يقطعه الإنسان على نفسه بأن يحيط الحبيب ويحميه من كل شيء، أن يعطيه ما يستطيع من حنان وحب واهتمام، أن يقتسم معه الحياة بدقائق تفاصيلها، أن يكون الملاذ الآمن والوسادة التي يغفو عليها مطمئنا، أن يكون السند والأمان، أن لا يفرط به تحت أي ظرف أو صعوبات، فإذا ما انتهت قصة الحب لسبب ما مهما كانت فظاعة تلك الأسباب يجب أن توضع كل الذكريات من قبل طرفي القصة في قمقم محكم ثم تحفظ في مكان آمن بعيد عن أعين الرقباء، باختصار يا روان الحب أمانة كبيرة والتفريط بذكرياته خيانة، نعم عشت أكثر من قصة حب وتعرفت على عشرات الصبايا وكنت أنت الأخيرة التي أنستني كل ما قبلها.

لم يكن كمال يدرك كم أبكتني شهامته وفروسيته ونبل أخلاقه، فمعظم قصص الحب عندما تسقط، يسقط طرفاها في جب الشتائم والفضائح ولعن كل ما مر بهما. وفي حالات كثيرة يتحول العشاق إلى أعداء ألدّاء يحاول كل طرف النيل من الآخر بشتى الوسائل والطرق، كبر في عيني هذا الرجل أكثر وبدأت أنفر من سمر أكثر.

- ثم تعالي إلى هنا يا رور.. أجيبيني هل سألتك عن ماضيك؟ هل سألتك إن أحببت غيري قبل علاقتنا؟ لم أسألك عن أي شيء يخص ماضيك للأسباب ذاتها التي قلتها لك قبل قليل أنا بالكاد سألتك عن اسمك..

- أحبك كمال.

- أحبك حبيبة قلبي روان، هيا اتركيني الآن سأكتب تقريراً عن مجزرة قام بها النظام هذا الصباح لقد أرسل لي عابد فيديو وعدة صور، فظيع ما فعلته الشظايا بالأطفال لقد مزقتهم نتفا وفجرت جماجمهم في أحضان أمهاتهم لا أدري متى يتحرك العالم الذي يدعي الإنسانية ويوقف هذا السفاح، إلى اللقاء يا حبيبة اهتمي بنفسك جيدا وكلي عني وعنك.

- مع السلامة يا روحي وأنت اهتم بنفسك..

بعد إغلاق الحوار مع كمال بكيت كما لم أبك في حياتي وقفت أمام المرآة حدقت بوجهي، لعنت نفسي كم أنا مزيفة وكاذبة أمام نقاء كمال وصدقه،

كيف ستكون ردة فعله عندما يكتشف ذات يوم أن كل ما عاشه من لحظات حب وأمان كان مجرد لعبة من فتاة شريرة نفذت عن طريق أخرى ضعيفة لا تستطيع رفض دورها في تمثيلية قذرة المستهدف فيها رجل نبيل، قررت الاعتراف لسمر بأنني مللت دوري، وكرهت نفسي وأنني سأغلق صفحتي على النت، ولتذهب هي إلى الجحيم..

اتصلت بي سمر صباحا وكانت متلهفة لمعرفة قراري بالنسبة لموضوع إرسال صورتي التي طلبها كمال، شعرت بالغضب الشديد وهي تحاول إقناعي بإرسالها له، قلت لها بصوت مرتفع:

- اسمعي سمر يبدو أنني تحملتك أكثر من اللازم فتماديت، كانت مجرد لعبة أقحمتني بها كي تتأكدي أن كمالاً يتكلم مع بناتٍ غيرك وهاأنت قد تأكدت من شكوكك خلال الفترة الماضية. ما هو المطلوب مني بعد ذلك؟ لماذا أستمر بعلاقتي وتواصلي مع كمال؟

- حبيبتي روان لا تغضبي أريد كشفه أكثر فأكثر تبا للخيانة، أرسلي له صورتك لنرى ما هو فاعل بعد ذلك بالتأكيد سيطلب منك مقابلته..

- مجنونة أنت يا سمر معقول ما تقولينه؟ أرسل له صورتي وأنتظر مواعدته؟ لن أفعل واذهبي إلى الجحيم. كرهت نفسي لأنني قبلت

مساعدتك منذ البداية عيب عليك كل ما تفعلينه احترمي نفسك بذمتك أهذه تصرفات فتاة ثورجية؟

- هيييي روان لا تحتدي اتركي صورتك جانبا وأرسلي له الصورة التي سأرسلها لك بعد قليل على بريدك..

- سأرى ما الذي سترسلينه وبعدها نتحدث..

بعد دقائق أرسلت لي سمر صورة صادمة جعلتني أرتجف خوفا، وفي ذات اللحظة بدأت أعي أنني متورطة حد النخاع في مؤامرة دنيئة وبدأت بقراءة ما بين السطور، يا إلهي كم أنا غبية! الصورة كانت لأختي ندى في كفتيريا الجامعة في حلب تجلس قبالة زميل لها يشربان القهوة ويضحكان ويدها بين يديه.. من أين حصلت سمر على هذه الصورة؟ وما علاقة أختي فيما بيننا، وكيف ولماذا أرسل صورتها؟

استقبلتني سمر على الهاتف بضحكة مجلجلة، لأول مرة أسمع ضجيج وقاحتها وصليل سيوف صداقتها وقبل أن أتكلم قالت:

- شو يا حلو أعجبتك الصورة؟

- من أين أتيت بهذه الصورة، وما الذي تخططين له أرجوك أخبريني؟

- بدون نقاش أرسلي لكمال صورتك حالا وجنبي أختك المشاكل فأنا أعرف عنها كل شيء وعنوانها في حلب عندي ومن السهل جدا الوصول إليها..

- اسمعي سمر رجاء..

أقفلت الخط وتركتني في مرجل الحيرة أكتوي بنار خيبتي. عشت حالة من القلق والتوجس ماذا عساني أفعل الآن؟ هل أتحداها وأصر على عدم إرسال الصورة؟ لم أكن خائفة من كمال على صورتي لكنني لا أريده أن يعرفني قبل أن تنتهي علاقة سمر بنا، لم أنم لحظة واحدة طوال الليل بقيت في فراشي أتقلب ولم أدخل النت إطلاقا كي لا أرسل الصورة أو أتحدث مع كمال.

في الصباح اتصلت بندى سألتها إن كان أحد قد اتصل بها أو اقترب منها، استغربت سؤالي ونفت أي شيء غريب حدث معها، فشعرت ببعض الطمَأنينة والهدوء فأوصيتها أن تهتم بنفسها وتلتزم الحذر في علاقاتها ثمَّ قررت النوم قليلا تعويضا عن الليلة الفائتة رغم ارتفاع صوت التلفاز الذي كان يبث أخبار القصف على عدة مناطق سورية ونقاش أبي وأمي حول حماقة النظام واستخدامه للسلاح الحي منذ بداية الثورة، ورغم صخب زينة وهي تهدهد لعبتها نمت بعمق ثلاث ساعات متتالية دون أي أحلام أو كوابيس.

(5)

صحيح أنني لم أفلح في عدّ الليالي التي قضيتها في المعتقل لكنني كنت أشعر بأن كل يوم يمر يعادل سنة كاملة بفصولها وشهورها، فالألم أكبر من أن يحجمه الوقت بالساعات والثواني، فبعد نقلي إلى الزنزانة المشتركة بدأت بالتعرف على زميلاتي في السجن وأستمع إلى قصصهن التي أتت بهن إلى هذا القبر العفن الذي تفوح منه الروائح الكريهة وينتشر فيه القمل والجرب، فقد كان الاستحمام رفاهية صعبة المنال بالنسب للسجناء، إذ كان الدخول إلى المراحيض منة يسمحون لنا بدخولها مرة صباحا ومرة أخرى مساء والويل كل الويل لمن تضطر للخروج في غير تلك الأوقات فمصيرها الضرب والإهانة والشتائم التي لا أدري من أي قاموس قذر حصلوا عليها.

كنا نجلس متراصات واحدة تلتصق بالأخرى نتحدث همساً وكنت خجلة من نفسي وأشعر بضحالتي أما تضحياتهن وأعمالهن التي قدمنها للثورة، وأذكر أنني عندما سمعت بقصة أمل شعرت باكتئاب فظيع وتمنيت لو أجد وسيلة للانتحار لأتخلص من عذاب تفاهتي وحياتي التي لا فائدة

منها، فأمل فتاة ريفية دخل الأمن إلى قريتها في حملة أمنية موسعة نفذ خلالها بعض الإعدامات الميدانية، كان إخوة أمل الثلاثة ووالدها من بين الذين تمّت تصفيتهم بدم بارد بعد إخراج الأسرة إلى خارج المنزل وإحراقه بالكامل بواسطة مادة كيماوية بيضاء تجعل الإسمنت يذوب من حرارة الاشتعال، كانت المسكينة تبكي كلما تذكرت الحادثة لم يكن بكاؤها انكسارا بل غضبا وغيظا، فهي عنيفة في غضبها كلبوة في قفص تزأر في محاولة لكسر ذلك القفص، وعندما تشعر بالعجز تضرب رأسها بيديها وتشد شعرها حتى يغمى عليها فنحاول جاهدين لإنعاشها بالصفع لعدم توفر الماء أو العطر أو حتى بصلة نقربها من أنفها فتنعشها، وعندما تستيقظ من غيبوبتها تبدو ضعيفة واهنة تتحدث بصوت خفيض وتردد بلا كلل: قتلوهم الكلاب رغم توسل أبي إليهم أن يقتلوه وحده ويتركوا إخوتي، أو على الأقل أن يتركوا أحمد فزوجته كانت على وشك ولادة طفله الأول الذي كان ينتظره بفارغ الصبر، فقد أعياه وزوجته العلاج خمس سنوات حتى أكرمهم الله بحمل زوجته، يا الله ماذا حل بأمي الآن، هل ما زالت على قيد الحياة، هل ماتت دون أن يشعر بها أحد؟ يا لوجع الثكالى وقهرهن، أقسم بالله سأنتقم لكم، أقسم سأنتقم..

تصمت أمل بعد هذه الجولة وتبقى صامتة لعدة أيام دون أن تنبس ببنت شفة أو تتناول كسر الخبز العفنة التي كانت تقدم لنا وكان الفضول يحثني لمعرفة سبب اعتقالها ولكنها لم تخبر أي واحدة من المعتقلات في زنزانتنا عن كيفية اعتقالها وسببه، ولكن لمياء قالت لي هامسة: ضبطوها على أحد الحواجز ومعها ممنوعات أرعبت النظام، بعض المسكنات ومضادات الالتهاب بالإضافة إلى بكرات من القطن والشاش الطبي، كانت تحاول إيصال بعض المواد الطبية للمشافي الميدانية التي اكتظت بالجرحى، كانت هذه جريمتها، تصوري قتلوا أهلها وشردوها وأسرتها ولم يعتبروا أن ما فعلوه جريمة، بينما اعتبروا المساعدة الإنسانية جريمة لا تغتفر، ثم تابعت لمياء كلامها ووصفت لي كم التعذيب الذي تعرضت له أمل قبل وصولي إلى هذه الزنزانة، إذ كانوا يرمونها في الزنزانة شبه ميتة تنز جراحها دما وصديدا، يبدو أنَّها كانت تتحداهم وتصرخ في وجوههم فيزيدون من التعذيب. أولاد الكلب يريدوننا أن نتوسل إليهم، وأن نقبل أحذيتهم طلبا لغفرانهم، ثم أردفت لمياء قائلة:

- مسكينة فقدت نصف عقلها.

ساد الصمت بيننا ورحنا نتألم لصراخ معتقل في الزنزانة المجاورة يصرخ ألما، يبدو أنَّ جروحه قد التهبت وتقرحت أو أن عظامه تكسرت فراح يئن قهرا ووجعا.

ما أجمل أن يكون قلبك طافحاً بالحب، موشى بانتظارات رهيفة حيث للنهار أغنية ولليل مواويل وقصائد مفعمات بالشجن، ولقلبك طاقة هائلة على استيعاب الحياة بكافة منمنماتها وتعاريج دروبها، لكن الغصة ما زالت تخنقني كلما تذكرت أن قصة حبي مجرد لعبة سيكون لانكشافها قوة قنبلة في تدمير كل هذا الفرح. فقد استمرت علاقتي بكمال بعد إرسال صورتي له وازددنا تعلقا ببعض على مرأى ومسمع سمر التي كانت تظن كلامي معه عن الحب إتقاناً لدوري في التمثيلية أقوم ببطولتها تنفيذا لرغباتها.

واستمر ضميري الذي لم يغفُ لحظة بتأنيبي وراح يلح علي بقوة لكشف اللعبة والاعتراف لكمال بكل شيء، لكنني خشيت من غضب سمر الذي أخاف من جسامة عواقبه طالما هددتني بشكل واضح وصريح بأختي، فأحجمت عن البوح وقررت الابتعاد عن النت وعن كمال نهائيا، لكن سمر رفضت الفكرة وأصرت على المتابعة، بل راحت تخطط بشكل شيطاني لأشياء أبعد، ولم أكن ذكية بما يكفي بل كنت انهزامية وغبية، ولم ألمس فظاعة خدعها منذ البداية فراحت تطلب مني مقابلة كمال بعد سؤاله عن عنوانه الذي كان الجزء الأهم من خطتها، فقد ألّحت بشكل مقرف وصل حد التهديد بالوصول إلى أختي ندى والإساءة إليها، وأتعجب أي شيطان يسكن تلك الفتاة التي رتبت معالم وجهها على مقاس الطيبة والرقة حتى استطاعت خداعي وخداع كل من حولها بأنها رقيقة طيبة صاحبة مبادئ

ثورية هدفها تحرير الوطن من براثن الدكتاتورية الرابضة على قلوبنا وإسقاط النظام، أي قدرة هائلة على التزييف والتمثيل تمتلكها تلك المخلوقة العجائبية التي استطاعت إقناعي بأنها ليست مثل صديقتَيَّ لميس ويارا اللتين كانتا على علاقة بعدد من شباب الثورة لدرجة أنهن منحن جسديهما لمن أراد بحجة التحرر وعدم التطرف الديني كي لا يقال أنهن داعشيات، وأنها ليست كصديقتي ورد التي أرادت إغاظة زوجها بعد طلاقها منه والبحث عن عمل ومنصب فراحت تتخبط يمنة ويسرى وتنتسب إلى الأحزاب دون اهتمام باختلاف مبادئ كل حزب، فانتسبت لحزب يعود إلى الإخوان، وآخر إلى الشيوعية وثالث يدعي الديمقراطية ورابع لا أهداف له سوى جمع المال باسم الشعب فصارت حديث المقاهي وجلسات المعارضة في كل مكان، صحيح أنّها استطاعت الحصول على بعض المكاسب لكنها فشلت في الوصول إلى كرسي محترم، واستمرت بالتسلق بكافة الوسائل المتاحة وغير متاحة.

وهي ليست مثل صديقتنا ليمار التي صارت بفضل الثورة إعلامية جذبها إلى دائرته ضابط منشق قام بإصدار جريدة فجمع حوله مجموعة من الشابات الباحثات عن الشهرة رغم ضحالة إمكانياتهن وأميتهن إلا في علوم التبرج والماكياج فصعدت ليمار وصارت إعلامية مرموقة على حساب خيبتها، فقد

شارفت حياتها على الانتهاء عندما نزفت بشكل مخيف بعد عملية الإجهاض التي أجبرها رئيس تحرير صحيفتها عليه خوفا من مطالبته بتسجيل الطفل باسمه إذا ما اكتمل حملها وأنجبته، أو ربما تطالبه بالزواج فتعرف زوجته وتكون الفضيحة مدوية..

غريب واقعنا لدرجة الاشمئزاز، فالمرأة فيه مهما قدمت تبقى الطرف الأضعف في المعادلة ويسهل استغلالها حتى من أناس يدعون الدين والتقوى ويلوذون بشرورهم خلف بسملاتهم وحوقلاتهم وحفظهم لبعض الآيات القرآنية، فقد عانت أرامل وثكالى الثورة الأمرين من ضعاف النفوس من الرجال موالاة ومعارضة ودائما كان الجنس شرطهم لتقديم المساعدات. فكم من امرأة تعرضت للمضايقة لأجل تحصيل علبة حليب لطفلها أو ربطة خبز، أو غرفة تأوي إليها مع أطفالها بعد قصف بيتها، لقد انقلب المجتمع رأسا على عقب بعد الثورة بسبب استشهاد عدد كبير من الرجال مخلفين خلفهم زوجات وأخوات وأمهات بلا معيل، فأصبحن وجهًا لوجه في مواجهة الفقر والعوز، وتهن في لجة البحث عن الاستقرار وعن سقف يؤويهن مع أطفالهن، ولأن المعارضة هزيلة لم تستطع استثمار أموال الدعم التي قدمته الدول في مشاريع حيوية تستقطب اليد العاملة النسوية وتكفيها شرّ السؤال.

ولكن بالرغم من تلك الفجوة الكبيرة في المجتمع استطاعت بعض النسوة ممارسة دورهن العظيم في الثورة فخرجن في المظاهرات وعملن في الإغاثة وجميع المؤسسات الثورية دون أنْ يتركن فرصة لأحد في تغبير أحذيتهن الطاهرة المناضلة، على اختلاف انتمائهن السياسي شيوعيات، أم ملتزمات دينيا، محجبات أم سافرات، فالأخلاق والإنسانية والشرف وجدت قبل الأديان..

كانت سمر من وجهة نظري عندما تعرفت إليها مثالا مميزا للفتاة المناضلة، فقد شاركت وقادت مظاهرات عدة، كانت تهتف بحماس منقطع النظير ولم تخف وجهها يوما عن عدسات التصوير كما كان يفعل البعض، فهي متمردة ولا تخشى الاعتقال، فالوطن، كما كانت تردد، يستحق التضحية، وكنت دوما أحمد الله أنَّ الأمن لم يقم باعتقالها رغم نشاطها حتى في إرسال الصورة والفيديوهات، وكانت علاقاتها بالجنس الآخر محترمة بعيدة عن الابتذال وجدية بشكل كبير، وهذا ما جعلني أطمئن لها ولصداقتها، فطبيعتي ترفض الإباحية والابتذال وتشمئز من الجنس الرخيص والعلاقات التي تدعى زورا وبهتانا علاقات متحررة، ربما بسبب تربيتي الصارمة في بيئة محافظة تعتبر شرف الفتاة مقدساً لا يجوز المس به، والعلاقات الجنسية غير مسموح بها إلا في إطار عقد زواج شرعي، أو لأنّني

ومنذ نعومة أظفاري أقرأ الكتب الرومانسية التي لا تحمل بين طياتها أي إشارات جنسية، فقد كان جبران خليل جبران يسحرني بمقولاته الإنسانية التي ربما كسرت أجنحتي، ولم أقيم نفسي حتى الآن هل أنا امرأة نموذجية أم متخلفة عن ركب المجتمع الذي تتخلله علاقات أستهجنها وأنفر منها؟ كنت تواقة للقاء كمال الذي تغلغل حبه في كل خلية من خلايا جسدي، لكن إلحاح سمر على هذا اللقاء أقلقني جدا وشعرت بخطورة اللعبة أكثر فأكثر، فماذا لو أرادت سمر الانتقام من كمال بإخبار أهلي عن موعد اللقاء، فتكون الضربة القاضية لي وله معاً فأخسر سمعتي ولا أدري ما هو العقاب الذي سيعاقبني به أبي ولا أستبعد أبدا أن يقتلني دفاعا عن شرفه.

وكم من القصص سمعتها عن جرائم الشرف تقتل فيها الفتاة لمجرد الاشتباه بسلوكها، ولطالما ظهرت براءة الفتاة بعد قتلها عندما يكتشف الطب الشرعي أنها ما زالت عذراء. أما في حالتي فلربما لن يكتشف أحد براءَتي لأنني مطلقة ولست عذراء، لذلك استمريت بالرفض إلى أن كتبت لي سمر رسالة تهديد واضحة تعلن فيها بأنها ستصور جميع مراسلاتي مع كمال وتقدمها هدية ثمينة لأمي مشفوعة بصورتي وصورة أختي ندى مع صديقها في الجامعة..

ها أنت يا سمر تكشفين أخيرا وبوقاحة عن وجهك الحقيقي فما عساني أفعل الآن أمام كل هذا الكم من الفظاعة؟ كيف أحذر كمال منها ومن خططها وهي تتابع جميع مراسلاتنا، وكيف سيكون رد فعل كمال عندما أفضح تآمري عليه؟ كيف وكيف وكيف وقعت في جب الحيرة والقلق، ولم يفدني قلقي في استنباط طريقة للخلاص من ورطة كبيرة تفصلها لي من ظننتها صديقتي المخلصة، تباً لحظي التعس الذي لم يقف إلى جواري يوماً، وها أنا الآن فريسة سهلة جاهزة للوقوع في بحر الخيبة.. أحيانا كنت أجد طريقة للنوم بعد أرق طويل فأرتب نتائج لقائي بكمال بطريقة طفولية طيبة وبريئة، فأتخيل سمر قادمة إلى بيت كمال أثناء تواجدي معه فتضع النقاط على الحروف، تلعن خيانته، تبصق في وجهه، ترمي هداياه تحت أقدامها ثم تدوسها، تشتمني أمامه وتتهمني بتهم شتى أقلها أنني خاطفة الرجال، ثم تبكي وتخرج من بيته فأخرج خلفها، وتنتهي القصة وتنتهي سمر من حياته نهائيا فأعاود التواصل مع كمال وأطلب منه الاعتذار لأنه لم يخبرني بعلاقته مع أخرى.. يسرقني النوم وأستيقظ بعد ساعات مرهقة متعبة لأجد أن القضية ما زالت معلقة..

(6)

سبب النزف الشديد المتكرر والألم الدائم أكياس مائية فوق المبايض، هذا ما قالته الطبيبة بعد فحوصات وصور عدة، ثم كتبت لي بعدها مجموعة من الأدوية كافية لاختفاء تلك الأكياس في بعض الحالات البسيطة، وإن لم تختف ستكون الجراحة هي الحلّ الأنجع للتخلص منها، لم أخبر الطبيبة وأوصيت أمي التي كانت ترافقني في كل زيارة ألا تخبرها أنني كنت معتقلة وتم اغتصابي لأنها أكدت لي أنَّ مرضي من الأمراض النسائية الشائعة والتي من السهل الشفاء منها وإن احتاجت المعالجة إلى وقت طويل نسبياً، لذلك داومت على استخدام الدواء دون كلل أو ملل، ورغم أنَّ حالتي لم تتحسن لم يساورني القلق على صحتي، لكنني حين عدت لمراجعة الطبيبة بعد انتهاء الدواء دون تقدم ملموس أبلغتني بأن العمل الجراحي ضروري ولا بدَّ منه لاستئصال تلك الأكياس، قالتها هكذا بكل بساطة وكأنها تتحدث عن تبديل قطعة غيار في سيارتها، أو شراء حذاء جديد، رغم معرفتي ببلادة الأطباء وبرودهم أمام آلام مرضاهم بسبب رؤيتهم ومعاينتهن لحالات كثيرة متشابهة إلا أنني شعرت بالحنق والغضب عليها وودت لو أصفعها

لعل بلادتها تتحرك قليلا فتبدي بعض التعاطف مع حالتي، لكن تعابير وجهها ظلت جامدة متحجرة وهي تحدق بنا تنتظر موافقتنا على إجراء العملية الجراحية التي وافقت عليها للتخلص من ألم ممض ونزيف محرج لا يتوقف. سبب لي فقر الدم والدوار.

في غرفة العمليات المرعبة بأجهزتها ورائحة الكحول والمعقمات التي تبعث على الغثيان راح الطبيب المخدر يسألني عن مهارات ابنتي في هذه السنّ، وإن كانت قد تعلمت بعض الأناشيد والأغنيات أثناء وضعه للمخدر في كيس السيروم، كنت أجيبه مع ابتسامة فاترة إذ كان الخوف يسيطر على جميع حواسي ثم بعد ذلك بدأت بالدخول إلى نفق لولبي طويل مظلم وبارد جدا وصدى الأمس يدور معي في تعرجات النفق الطويل الذي خرجت منه عندما صحوت لأجد نفسي ممدّدة على سرير ضيق في غرفة صغيرة يطغى اللون الأبيض على كل الأثاث الموجود بها، شراشف بيضاء وجدران وكراسي كلها ناصعة البياض، ذلك البياض البارد الذي يشبه الكفن ويوحي بالموت. كانت يد أمي تعانق يدي، سمعت صوتها وهي تقول بلهفة:

- بدأت تصحو يا دكتور لقد حركت يدها..

أدركت أن العملية انتهت وأن آثار المخدر قد بدأت تزول إذ صحت مخاوفي من غفوتها فرحت أسأل نفسي إن كنت قد رددت بلاوعي بعض الأسماء والأحداث أثناء انتهاء مفعول المخدر، أو ربّما ذكرت اسم كمال، لكنني طردت جميع الأسئلة من رأسي بتحدٍّ، فماذا سيحصل لي أكثر مما حصل؟! بعد نصف ساعة استعدت كامل وعيي فشعرت بآلام مبرحة في أسفل ظهري وبطني وبمرارة في حلقي، وبدأت بالتوجع والأنين، شدت أمي على أصابعي بقوة رفعت رأسي ونظرت إلى وجهها، لم أكد أعرفها لقد هرمت فجأة وبانت التجاعيد على جبينها المقطب وحول فمها وتهدلت أجفانها. أمي الجميلة شاخت ما بين نومي وصحوي إذا يا لهول ما حصل في ردهات الوقت المثقل بالترقب والقلق، كانت عيناها متورمة من البكاء، واكتسى وجهها بشحوب قاتم مصفر، وعندما لمحت دموعي ودهشتي أفلتت يدي بسرعة وخرجت من الغرفة..

الإبرة المسكنة التي عاجلتني بها الممرضة الحسناء طردت الألم بعد ربع ساعة وأشعرتني أن كل شيء على ما يرام، فها أنا أتخلص من مرض أثقل كاهلي طويلا وأرقني..

عند المساء زارتني طبيبتي وكانت تبتسم على غير عادتها، قالت وهي تضع سماعتها على صدري:

- الحمد لله على سلامتك يا روان، كيف تشعرين الآن؟

- سلمت يداك دكتورة منى، هل كانت الجراحة ناجحة وتمّ استئصال الأكياس المائية؟

- نعم لقد كانت ناجحة جدا، وجيد أننا لم نتأخر في إجرائها كثيرا. أنت الآن بخير، ولكن أرجو أنْ تتقبلي ما سأخبرك به بهدوء..

- خير يا دكتورة هل من مضاعفات للعملية؟

- في الحقيقة يا روان تبين لنا أثناء الجراحة وجود ورم على المبيض الأيمن ملتصقٍ وملتحمٍ به تماما، وكان من الصعب فصله عن نسيج المبيض فقمنا باستئصالهما معا، الورم والمبيض!!

سمعت أثناء بكائي صوت أمي وهي تنوح كثكلى دون أن تدير وجهها باتجاهي، كانت تجلس على كرسي قبالة نافذة تطل على ليل صاخب خارج الغرفة، تمسح دموعها وتسترق النظر إلى ملامح وتعابير وجهي، تريد استقراء ردود أفعالي حول الخبر الذي زفَّته لي الطبيبة التي تابعت كلامها بعد سؤالي لها إن كان الورم سرطانا:

- لقد أرسلنا الكتلة إلى مختبر تحاليل الأنسجة لنعرف نوع الورم الذي يبدو حتى الآن من النوع الحميد وربما يكون كتلة دهنية لا أكثر فلا تقلقي

واحمدي الله أنَّنا اكتشفناه قبل فوات الأوان، وقدمي الشكر لوالدتك التي وقعت بالموافقة على إجراء استئصال المبيض حرصاً على حياتك وفي كل الأحوال لا تخافي، الأمور تحت السيطرة إذا كان الورم سليما تأخذين الدواء وتنتهي مشكلتك، وإنْ ثبت أنه أحد أنواع السرطان لا سمح الله، عندها ستضطرين لأخذ جرعات الكيماوي والالتزام بمواعيدها بدقة ودون تردّد..

- بعد ذهاب الطبيبة والممرضة عانقتني أمي التي هدّ قواها الحدث فبدت مستسلمة لضعفها بشكل مرعب فاصطنعت القوة وجفّفت دموعها بيدي، وطلبت منها أنْ تتماسك، وأن الأمور بخير وأنّني سأتحسن بفعل الدواء. ثم ابتسمت ابتسامة مطمئنة لأشعرها بالرضى عن النتيجة، ووعدتها أنْ أرافقها إلى أي عرس سندعى إليه وأنني سأرقص فيه وأثبت لها أنّني تخلصت من مجمل خيباتي وانكساراتي، وودعت الماضي إلى غير رجعة، وفي الحقيقة كنت في تلك اللحظات أشعر أن الدم يفور من قلبي وينسكب على أرض مفروشة بالحصى، فآخر ما كنت أتوقعه أن يلتهمني المرض يستمتع بنهش جسدي ويبدأ بأكله قطعة إثر قطعة كسياط الجلاد وكلاباته التي نهشت ما أرادت منه في المعتقل.

(7)

هذا البياض الثلجي الممتد أمامي في بلد الديمقراطية السويد التي احتضنت خيباتنا جعلني أتساءَل بحيرة: هل كان علينا دفع كل تلك الرسوم الباهظة من دمنا وأعصابنا وأعمارنا وأمننا كي نصل بعد ذلك إلى بلاد ما وراء الشمس التي تجملها الورود والطيور لنصبح عالة على شعوب لها عاداتها وأساليب حياة مختلفة عن عاداتنا، وحياة باهتة لا طعم لها، ولغة علينا تعلمها للاندماج في تلك المجتمعات التي توجست خيفة من تدفقنا ومشاركتها خيراتها ومقدراتها، معذورة فهي لا تعرف أي شعب نحن وأي ثقافة وعلم نحمل، وأن كل واحد منا يستطع القيام بعدة أعمال في وقت واحد وبمهارة فائقة ويمكنه العمل في أي مجال كي لا يحتاج مساعدة من أحد؟!

ترى أما كان بالإمكان أن نعيش بأمان تحت أشعة شمس يحلم هؤلاء بتعريض أجسادهم لها؟! أم أننا طابور خامس علينا البقاء في ظل الحياة إلى

ما لا نهاية، ربما لأننا ولدنا من أمة مقهورة تسلط عليها العالم، فما أن ترفع رأسها حتى ترجم بالحجارة لتعود إلى جحرها من جديد، معقول أن يكون التاريخ الذي تعلمناه في الكتب المدرسية والثقافية والدينية عن فتوحاتنا الإسلامية العظيمة وحضارتنا في الأندلس وتقدمنا العلمي في الطب والموسيقى والآداب واختراعاتنا واكتشافاتنا التي نهل منها العالم في ذاك الوقت ومازالت آثارها باقية هل كل هذا مجرد فرية لتحسين صورة أجدادنا لا أقل ولا أكثر؟!

ما زالت آثار رحلة اللجوء الممضة ترهق جسدي المعتل ولا أكاد أصدق أنني أنا التي قطعت كل تلك المسافات واجتزت كل الأسلاك الشائكة بين الحدود الدولية، لكن يبدو أن إرادة الحياة تسهل في دواخلنا كل شيء وتذلل لنا العقبات على الأقل نفسيا فنحث الخطى صوب النجاة دون تأفف فجميع من التقيت بهم في هذا المخيم لهم قصص مشابهة لقصتي، وربما أكثر فظاعة، فمنهم من فقد أسرته كاملة، ومنهم من قطعت ساقه ومنهم من فقد جميع ممتلكاته وبعضهم مصاب بحروق. فهذه أم ثكلى وتلك أرملة وذاك يتيم. رباه كم شوهتنا الحرب.

كانت بيروت أول المحطات وأكثرها فتنة فبيروت امرأة مغناج تبدو بكامل أناقتها ببحرها وليلها الصاخب الذي لا ينام وإن نام القمر والتحف السماء، بيروت مدينة متجددة لا تعرف الانكسار بالرغم من كل ما مرّ بها وما زال يمر من عثرات. لقد نفضت غبار الحرب التي دمرتها في زمن مضى ما زالت تتنفس الحرية فمن يتجول في شارع الحمرا وأسواقه أو على كرنيش الرملة البيضا أو يتجول ليلا بين باراتها ونواديها الليلية التي تمتد على طول وعرض بيروت تقريبا، فبعد إغلاق المحال التجارية ابوابها في الثامنة مساء تتحول جميع الأرصفة والأزقة الفرعية إلى بارات متصلة تفوح منها جميع أنواع الخمور.

ميزت منها رائحة النبيذ والبيرة ممتزجة بروائح عطور السهارى من رجال ونساء تندلق ضحكاتهم المقهقهة بطريقة تحثك على الضحك رغما عنك، إذ كنت أبتسم وأنا أمر من أمامهم بطريقة بلهاء، شعب يحب الحياة بكل ما فيها من سهر وطرب وأناقة ومجوهرات وسيارات وكلاب أليفة وجميلة، وكنت أنا أبدو بدوية خارجة للتو من مضارب عشيرتها، بملابسي البسيطة وشعري المشدود إلى الخلف وحذائي الرياضي وحقيبتي الصغيرة التي فقد أحد جيوبها قفله، فمنذ زمن بعيد لم أفكر البتة بمظهري ولم أكن في مزاج يسمح لي في التحديق بالمرايا التي كرهتها أثناء مرضي فصراحتها قاتلة،

وجه أزرق مصفر رأس حليق وعيون ذابلة منكسرة، كنت منشغلة بعد خروجي من المعتقل والشفاء من السرطان بفكرة السفر والهروب من المحرقة للتنفس بحرية خارج بحر الدماء والخوف.

أنا السمكة التي تموت إن خرجت من شامها قررت السفر فغلاصمي لم تعد تحتمل رائحة البارود منذ أول قذيفة شرسة سقطت بالقرب من بيتنا، ومنذ أول شهيد سقط فوق إسفلت الحرية، لذلك اعتبرت وصولي إلى بيروت من أكبر الانتصارات التي حققتها في حياتي، فطعم الحرية لذيذ وماتع لم أعد أشعر بأي ألم، لذلك كنت أحلق كفراشة أسابق عقارب الوقت، أدور بين الأزقة والشوارع أحدّق في واجهات المحال التجارية، أستمتع بالأضواء المرصوفة كعقد ماسي، كل شيء في المدينة يغريك بالغناء والرقص والفرح، ينسيك ماضيك وأحزانك. طفلة أنا أتلذذ بالحياة كقطعة شوكولا، ركبت مع طفلتي زينة في معظم ألعاب مدينة الملاهي في الرملة البيضا وكنت أكثر طفولة منها، مسكينة زينة كانت تحدق بي بدهشة وأنا أقهقه بطريقة لم ترها منذ ولادتها قبل أربع سنوات، وتذكرت مقولة لأحلام مستغانمي كنت قد دونتها يوما على روزنامة معلقة على الحائط: شيء مدهش أن يصل الإنسان بخيبته وفجائعه حد الرقص! إنه تميز في الهزائم أيضا، فليست كل الهزائم في متناول الجميع.

كان لبيروت العظيمة الفضل في استعادتي لبعض التوازن رغم الأيام القليلة التي أمضيتها فيها فملمس الحرية ناعم ودافِئ، لكن لفت نظري سيادة حسن نصر الله في كل مكان، ورغم أن بيروت ذات غالبية مسيحية لكن صور نصر الله تتربع جدران الكثير من الشوارع، تشعرك بأن وراء الكواليس ما يدبر، لكن الشعب اللبناني لا مبال أو أنه غير مكترث لهذا المد الشيعي الكبير الذي تلحظه في كثير من المواقف. فمعظم سائقي التكسي في بيروت شيعة فبمجرد أن تستقل إحدى السيارات العمومية حتى تصدمك نغمة الأغاني الدينية الشيعية المنبعثة من مسجلة السيارة وما أن يعرفوا أنّك سوري من لهجتك حين تضطر للسؤال عن عنوان شارع أو سفارة أو مشفى حتى يبدأ الحديث عن الإرهاب الإسلامي الداعشي وعن جبهة النصرة وعن الفصائل الإسلامية التي تمولها السعودية وتركيا من أجل دمار سوريا. ثم يحدثونك عن بطولات الأسد في مكافحتها ويصفون نظامه بالممانع والمقاوم ويتغاضون عن ذكر الشعب السوري الثائر بل يتبجحون بأنهم قدموا مئات الشهداء لأجل مساعدته في التخلص من الارهاب. ويؤكدون أنهم ماضون معه حتى النهاية، حتى في الفندق القريب من المطار الذي أقمت به كانت جميع محطات التلفاز مبرمجة على المحطات التابعة والممولة من حزب الله وإيران: المنار والكوثر وغيرهما.

في الطريق إلى المطار في سيارة أجرة طلبتها لي إدارة الفندق لأنَّ رحلتي إلى اسطنبول كانت في السادسة صباحا ومن الصعب إيجاد سيارة عابرة تقلني إليه في مثل هذا الوقت المبكر، كانت فيروز بصوتها المخملي ترافقنا وتخفف من توتري وتعطي للصباح رونقه. وعندما وصلنا باب المطار أنزل السائق الحقائب ثم تناول من يدي عشرين دولاراً وودعنا بالدعاء لنا في سفرنا وعودتنا إلى سوريا قريبا رافعين رؤوسنا بعد انتصار بشار الأسد على الإرهاب.

خفق قلبي بشدة عندما زادت الطائرة من سرعتها فوق المدرج استعداداً للطيران، ثم سقط فجأة. عندما بدأنا التحليق كانت المرة الأولى التي أركب بها الطائرة فشعرت برعشة تهز كياني أمسكت يد زينة كانت سعيدة جدا تنظر حولها باستغراب دون أن تشعر بأي رهبة أو خوف، ربما لأنها ما زالت صغيرة لا تفهم ما يدور حولها أو لأنها تشعر بالأمان وهي تجلس إلى جانبي. بعد تعليمات النجاة وإعلان المضيفة على أننا على ارتفاع آلاف الأقدام فوق سطح البحر غابت بيروت عن النظر تماما وغاصت الطائرة في جبال الغيم. كانت الشمس تطل بين الفينة والأخرى كامرأة تراقب زوجها ثم تلوذ كي لا يكتشف أمرها. استسلمت لمقعدي وحزام الأمان وتشاغلت عن فوضى أفكاري بمراقبة صبية شقراء راحت تداعب بقبلاتها شابا أسود الشعر

كثيف اللحية يجلس إلى جوارها ويحاول صدّ تلك القبلات وهو يلتفت حوله خوفا من أن يلتقط المشهد أحد الركاب.

في مطار اتاتورك كان أحمد ابن خالتي في انتظارنا وقد جاء بطلب من أمي التي خافت ألا أحسن التصرف فأضيع في بلد لا أعرف لغته ومعي طفلة بحاجة إلى الرعاية. وفي الحقيقة فإن استقبال أحمد لي أشعرني بالأمان والألفة، فقد ساعدني كثيرا في تأمين الإقامة في فندق رخيص بمنطقة شعبية تكثر فيها المطاعم والمقاهي التركية والسورية التي تجذب السياح بروائح طعامها الزكي ورائحة النراجيل والقهوة التركية التي ذكرتني بالشام ومقاهيها، كان التواجد السوري لافتا فأينما وليت وجهك تسمع اللهجة السورية تارة حلبية وتارة أخرى حمصية وشامية ودرعاوية وخاصة من الباعة الجوالين الذين يكثرون في اكسراي وساحة تقسيم، وقعت في حب البوسفور من النظرة الأولى وانبهرت بعظمته وجماله ورحت أزوره بشكل شبه يومي. كانت زرقته تكتب للشمس قصائد الغزل وترسلها مع أسراب النوارس، وكانت المراكب الغافية على جانبيه عرائس بحر يتربعن على عرش الماء، كل شيء في هذه المدينة ساحر وخلاب. وبعد الجولة السياحية في البوسفور على متن أحد المراكب السياحية التي تبرع أحمد بشراء بطاقاتها شغفت حبا بتلك المدينة العامرة بمعالمها ذات الطابع الديني العثماني وبمساجدها الأثرية، فالمساجد

تحف فنية بطابعها المعماري المميز وفلل أثرياء تركيا الفاخرة التي يمر المركب بالقرب منها فتبدو كقصور الأحلام، القلاع، اخضرار الطبيعية، كل ما في هذا المكان يغمرك بالفرح والبهجة، ولولا وجعي والكوابيس التي تغتصب ليلي وضبابية المستقبل وقلقي على أسرتي وفكرة السفر عن طريق تجار البشر وخوفي ألا يكفي ما لدي من مال للوصول إلى السويد التي تقض مضجعي وتسرق النوم من عيني ليلاً لكنت عشت أجمل أيام حياتي على الإطلاق.

أمضينا ثلاثة أيام من التجوال والتنزه في اسطنبول، كان أحمد خلالها يبحث عن مهرب يتحلى ببعض الإنسانية ويقبل بمبلغ مناسب لإيصالنا إلى اليونان برا، فقد رفضت تماما فكرة السفر مع زينة عبر مراكب البحر أو ما اصطلح على تسميتها مراكب الموت التي تحمل على ظهرها أربعة أضعاف قدرتها الاستيعابية، وعندما يرتفع الموج تتمايل بتثاقل فترمي حملها وتنام فوقه، وبعد أيام يبدأ البحر بلفظ الجثث ورميها على الشواطِئ منتفخة ومزرقة، كانت محطات التلفزة وصفحات الإنترنت تنشر كل يوم أخبار غرق المراكب بين تركيا واليونان وبين ليبيا وإيطاليا ثم تبدأ مناشدات الأهالي لمعرفة مصير أبنائهم وأسرهم، يغضب المجتمع الدولي وتجتمع المجموعة الأوربية لإيجاد حلّ، ثم يصمت الجميع ويتابع السوريون غرقهم، لذلك كثّف أحمد اتصالاته بمعارفه وفي كل مرة نذهب لمقابلة مهرب نعود

بالخيبة، فجميع من قابلناهم يصرون على أخذنا في المراكب ويبالغون في وصفها ويتفانون في إقناعنا أن طريق البحر أفضل الطرق، ففي البرّ قد يتعرض المرء إلى عصابات سلب ونهب أو ربما تهاجمه الوحوش، وقد يطلق حرس الحدود النار على أي شيء يتحرك.

وراح الوقت يضيق علينا وصار إيجاد مهرب صادق معجزة، فالصدق في هذه المهنة شبه معدوم، وثقة الناس بهم معدومة أيضا، فهم يأخذون المال من المساكين الفارين من الموت والاعتقال في بلادهم مع وعود خلبية بسفر آمن ومريح ثم يخلفون في مواعيدهم، تاركين لهم حرية الاختيار إما التخلي عن المال أو الانتظار حتى تأمين الطريق لهم، يا لهذه التغريبة السورية ما أشد فظاعتها.

لم يغب كمال عن ذاكرتي لحظة واحدة، كنت أستحضره في كل ثانية أشم عطره أشعر بأنفاسه الحارة تحرق عنقي، ويده تلف خصري وتشدني بقوة إليه، كان لضوء القمر المكتمل في منتصف شهر نيسان والدفء الربيعي تأثيرهما الغريب على مشاعري، ذبت شوقاً وهياماً، وعصف الحنين بوجداني، وفي كل خلية من خلايا جسدي، تهزني اللحظة الهاربة من بنات أفكاري فأرتعش رهبة كلما مدَّ الواقع لسانه وأغاظني ثم رشق الحقيقة

الباردة في وجهي دفعة واحدة، كمال في المعتقل تحت التعذيب وأهوال سجون النظام بسببي سلمته بيدي بكل حماقة وسذاجة وغباء، ذنبه في رقبتي حتى المات وأنا في طريقي إلى الغرب هربا من كل شيء أحمل على ظهري فجيعتي وانكساراتي وطعم الندم والشعور الفظيع بالذنب تجاه كمال الذي ضيعته وضعت، ستكون أيامي بنكهة السخط ورائحة الحسرة على حب كان يتبرعم في بستان حياتي شجيرة ورد في مواجهة ريح عاتية اقتلعتها، ورحت أسأل نفسي بطريقة مؤنبة: ترى أما كان بالإمكان ألا يحصل ما حصل لنا؟ ترى ما الذي يخسره القدر وتدفعه الظروف لو تمم الله فرحتنا ببعض مثل أي شاب وفتاة على هذه الأرض، ألم يكن بالإمكان أن تستمر قصة حبنا فنتزوج وننجب ونعيش الحكاية بكافة تفاصيلها، أم كتب علينا القهر إلى يوم الدين؟

لو قدر لنا وتزوجنا كنت سأعتني بكمال كطفل مدلل، فالارتباط بحبيب يغير عادات وتصرفات المرء ويجعله أكثر رقة ورومانسية، لو تزوجت حبيبي كنت سأحيطه بكل ما في العالم من حنان ورقة وتفانٍ، فقد علمتني الصفعات التي تلقيتها في الحياة وبعد كل ما تعرضت له من إخفاقات كيف أحافظ على الأشياء الثمينة في حياتي. كنت في قمة الجاهزية لبذل روحي وعمري لإرضاء حبيب أنار وجوده حياتي وحولها إلى فردوس أرضي وارف الظلال متدفق الأنهار، كنت سأنتظر عودته إلى البيت كحورية بملابس نوم فاقعة

مغرية وعطر مفعم بالأنوثة والرغبة، سأترك شعري على راحته منسدلا وأنتظره خلف الباب لأضمه فور وصوله وأغيب معه في قبلة طويلة، يقولون أن الرجال ينجذبون للمرأة المبادرة التي تهب نفسها لرجلها باندفاع وشهوة.. قطع المهرب شرودي عندما أمسك يدي بعنف وجرني خلفه وهو يهمس غاضبا:

- تأخرت عن الجميع وخمنا أنك ضعت بين الحقول، ما بك هل تظنين نفسك في نزهة؟ هيّا أسرعي، أمامنا مشوار طويل.. كان طريق التهريب إلى اليونان الذي اتفقنا أنا وأحمد مع المهرب عليه أخف الطرق خطورة، وكما أكد المهرب وبعض رفاق الطريق الذين اجتمعنا معهم قبل بدء الرحلة بساعة فقد حدثنا ليث عن تجربة أقارب له سلكوا هذا الطريق.

وليث هذا رجل فلسطيني أسمر البشرة قصير القامة يبلغ من العمر حوالي خمسين عاما، خسر زوجته وأولاده في البحر أثناء محاولتهم الوصول إلى إيطاليا عن طريق مركب متهالك خرجوا من أحد شواطئ ليبيا ومعهم مئات السوريين والأفارقة ولم يكتب الله النجاة إلا لعشرة أشخاص بعضهم فقدوا أفراداً من أسرهم الأم أو الابن، الأخت أو الأخ الزوج أو الزوجة، فقد اعتاد البحر ابتلاع المراكب بمن عليها من المهاجرين الفارين من الموت بسبب جشع تجار البشر الذي يُحمِّلون المراكب فوق قدرتها على الاستيعاب

ثم يتركونها في عرض البحر ويفرون خوفا من شرطة السواحل فتضيع المراكب في عتمة ليل دجوجي، ولا يكتب لهم النجاة إلا إذا حالفهم الحظ وصادفتهم إحدى البواخر أو البوارج التجارية التي قد تلتقط إشارة مركبهم وتسمع أصوات استغاثاتهم وإلا سيكون مصيرهم الغرق أو قضاء أيام في الجوع والعطش والبرد. أما الطريق البري فأخطر ما به أن تمسك بك قوات الدرك التركي وتعيدك من حيث أتيت، أو قد تضيع في الغابة لم يكن معك من مهرب يدلك على الطريق وإن حدث فإنّها أفضل من الموت غرقا وتكون طعاما للأسماك..

بدأ طريق تغريبتنا من أدرنة التي استلزم الوصول إليها من اسطنبول ركوب الباص ست ساعات متواصلات بلا استراحات، وعند وصولنا نقطة انطلاق الرحلة نزلنا جميعنا وسرنا خلف المهرب الذي أخبرنا في البداية أن مدة المشي حتى نصل إلى أول نقطة يونانية حوالي ثلاث ساعات، وطبعا كان يكذب بحجة تشجيعنا، كنت أسير دائما في آخر المجموعة المؤلفة من عشرة رجال وثلاث نسوة وأنا وطفلتي التي قطعت معظم المسافة محمولة فوق أكتاف الشباب الذين أشفقوا عليها من وعورة الطريق ووحشته، وكانت المسكينة مسالمة تماما لدرجة أنّي كدت أنسى وجودها معي وأنا أحث السير يتبعني لهاثي المتقطع ووجع يراودني بين الحين والآخر فأتوقف قليلاً

ثم أتابع السعي نحو هدف لم يظهر أي أثر منه بعد مسير أربع ساعات، كنا نتوغل خلالها بين الغابات بأشجارها الحرجية المتنوعة تتقصف تحت أقدامنا الأغصان اليابسة فتصدر أصواتا قوية فنتوقف قليلا كي لا يكتشف أمرنا فينهرنا المهرب أن تابعوا.

بعد قطع الغابة ندخل حقول الأرز فتغوص أقدامنا في وحلها، ومن يقع تبتل جميع ملابسه فيرمي بعضها في الطين ويتابع، تعلق فردة حذاء، يتسخ قميص، لا أحد يهتم، فالتركيز على الوصول والخوف من القبض علينا من قبل الدرك التركي يجعل كل العثرات بسيطة، وكانت تتوالى الحقول التي علينا قطعها مرة نسير في حقول القطن التي يلوح أبيضها لضوء البدر، ومرة أخرى كنا نسير بين حقول الذرة الطويلة، والأصعب من كل ذلك التوغل في أرض محروثة حديثاً بالنسبة لنا وعرة جدا، تغوص أقدامنا في تربتها وترتفع في حركات ميكانيكية مرهقة جدا.. ما كان يبدد وحشة الطريق النكات والنهفات التي يسردها الشباب بصوت هامس فيضحك الجميع مع وضع أيديهم على أفواههم كي لا يزجرهم المهرب الذي كان يحرص ألا تصدر المجموعة أي صوت.

وكانت التعليمات تقضي أن نرمي بأنفسنا على جانبي الطريق إذا ما سمعنا صوت سيارة قادمة على الطريق الإسفلتي الموازي للغابة، ويبدو أن حب البقاء ورغبتنا في الوصول الآمن جعلنا ننفذ جميع أوامره بحذافيرها.

وكلما لمحنا ضوء سيارة أو سمعنا صوت عجلات من بعيد كنّا نرتمي أرضا ولا نلتفت للمستنقعات الطينية التي وقعنا بها غير مرة والتي جعلت ملابسنا رطبة رثة يكسوها الطين والقش، وراحت أقدامنا تتمايل داخل الأحذية الرياضية بفعل الماء المتسرب إليها، ولم نكن نشعر بالبرد رغم سيرنا في ساعات متأخرة من الليل، فقد طغى جوّ الربيع على الطقس في منتصف نيسان، بالإضافة للمجهود الذي كنا نبذله في متابعة هروبنا من الموت إلى مصير مجهول، فالمسافة إلى أقرب نقطة يونانية ما زالت بعيدة، والمسافة إلى أوروبا أكثر بعداً وغموضا، فبعد الوصول إلى اليونان سندخل في مرحلة جديدة من البحث عن طرق تهريب أخرى للوصول إلى إحدى الدول الأوربية أو الاسكندنافية، وعلينا في هذه المرحلة التركيز على الوصول إلى اليونان، فأمامنا بعد ساعات قليلة قطع نهر عريض وقليل العمق بالركوب في مركب مطاطي كان الشباب يتناوبون على حمله بسبب ثقله إذ لا يمكن نفخه إلا بالقرب من النهر كي لا يلفت حجمه النظر وكي لا تثقبه أغصان الأشجار والأعشاب. هسيس خطانا وحده كان يبعث الرعب في قلوبنا..

نتوقف قليلا ونرهف السمع.. لا أصوات أخرى غير لهاث أنفاسنا ودقات قلوبنا المتسارعة، وكي أبدّد الوحشة والتعب كنت أهرب من الواقع فأتسلق سلالم الخيبة بخفة ألقي نظرة شوق على الشام ساحاتها المشكوكة بالضوء في مثل هذا الوقت من الليل، أعرج على المقاهي العامرة بروادها تغريني رائحة النراجيل، صوت أحجار النرد وهي تتسابق فوق طاولة اللعب الخشبية، محل الحلويات الذي يتقاطر الناس إليه لشراء الكنافة النابلسية، أشعر بجفاف حلقي، ويداهمني العطش، أتوقَّف قليلا لأطلب بعض الماء. ينهرني المهرب فاحث السير وألم السياط يأكل لحمي ووجه المحقق يلتصق بوجهي وأنا أركض كي أهرب من أظافر حقده بعيدا إلى اللاشيء. فالزنزانة لا امتداد لها، صرخات زملاء السجن تصم أذن الصمت وتنزلق من بين مزارع القطن وحقول الأرز.. وخشخشات ورق الشجر المتساقط وطين الحقول، وطنين أذني الذي لا ينتهي..

يصرخ بصوت خفيض:

- سيارة يا شباب سيارة..

نرتمي بلاوعي على جانبي الطريق الوعر.. تحتضننا قساوة الحجارة ونتوءات الأرض وحطب أشجار حرشية لا نميز نوعها تتكسر تحت ثقل أجسادنا ولا تئن رحمة بنا ولا نتألم، فقد أدمنا الوجع مذ كانت أجسادنا

متدلية من سقف زنازيننا مذ أول ركلة بحذاء عسكري قذر، منذ أول تيار كهربائي صعقنا به لنعترف بأننا عملاء نطالب بالحرية.. أمامنا أضواء قرية يونانية بالكاد ترى والمهرب يكرر اسطوانته المشروخة:

- اقتربنا يا شباب.. أسرعوا.

فجأة وقع مصطفى على الأرض وبدأ يصرخ ألماً. تجمهرنا حوله فأسرع المهرب لإسكاته، لكن دون جدوى، فقد كانت آلامه تدفعه دفعا للصراخ، فقرّرنا استراحة لمدة عشر دقائق بين الأشجار ريثما تخف آلام مصطفى، آلمه تحرك بحصة في الكلية اليمنى، وتأتيه نوبات وجع بين الحين والآخر وخاصة عندما يظل فترة طويلة بدون شرب السوائل كما في هذه الرحلة، تابعنا السير بعد أن منّ المهرب على مصطفى بشربة ماء لكي يشرب حبة المسكن لكن الألم لم يفارقه تماما وظلَّ يسير خلفنا ويتوقف كلما عاوده ألم الكلى فيستجدي قطرة ماء من المهرب الذي أعلن نفاد كل الكمية التي كانت معنا رغم ضبطنا له مرات وهو يلوذ خلف الأشجار يشرب ثم يعيد زجاجة الماء إلى حقيبته ويواصل سيره معنا.

وعلى ما يبدو أن الجلاد الذي عذب مصطفى في سجنه وقتل صديقه تحت التعذيب لا يختلف كثيرا عن المهرب الذي لا يرحم، مع فارق الأدوات وأساليب التعذيب، فقد تعرض مصطفى، في أول اعتقال له وكانت الثورة مازالت في بدايتها، إلى تعذيب بالماء، إذ كانوا يجبرونه على شرب لتر كامل من الماء في جلسة واحدة، ثم يقومون بربط عضوه الذكري كي لا يتمكن من التبول، وعندما تمتلئ مثانته يبدأ بالصراخ والتوسل كي يفكوا ضيقته، وكان شرطهم أن يعترف ويعطيهم أسماء من يخرج للتظاهر معه، وفي وقتها استطاع تمرير خدعته عليهم والتي لم تعد تنطلي عليهم لاحقا فقد عدّ لهم حوالي عشرة متظاهرين، وكانت الأسماء لشهداء قتلهم النظام.

كان الليل يطول كحبل مطاطي كلما شددناه زاد من طوله ولا أمل بخلاصنا. طويلة تلك الدروب وشاقة، أطول من ليل معتقل تحت التعذيب تنقذه في آخر الوقت غيبوبة تنهي وجعه وتتركه معلقا على نافذة موت لذيذ يرفعه إلى السماء فلا يعود إلى أرض العذابات تلك من جديد.

(8)

قررت بعد ليلة عصيبة لم أتذوق طعم النوم خلالها عمل حساب جديد على (الفيسبوك) ومراسلة كمال وإخباره بكل شيء، لكن حرت في شكل القصة التي سأرويها له هل أخبره أنَّ حبي له كان مجرد لعبة اشتركت بها مع سمر؟ هل سيصدقني إن أقسمت له بأنني أحبه جدا رغم أنَّ البداية كانت عن طريق الخداع؟

هل سيصدقني كمال بعد ذلك ويستمر بحبه لي رغم أنَّ خسارته ستكون الضربة القاضية لي بعد أن أصبح حبه الدم المتدفق الذي يروي أوردتي وشراييني؟

كيف سيصدق كمال أنني أنا روان ذاتها التي تحدثه من حساب آخر ويطمئن لي؟

ألن تكتشف سمر بأن عدم تجاوب كمال بشأن اللقاء فيه ما يريب فتكتشف أنني حذرته بطريقة أو بأخرى؟ لأول مرة أواجه نفسي بحقيقة شخصيتي الضعيفة الانهزامية الجبانة، جبانة حدّ التورط بجرم الخداع،

خداع شاب ذنبه أنه صدقني وأحبني. صرفت النظر عن الفكرة، واتصلت بسمر لعلها تقتنع بفكرة عدم ذهابي لذاك اللقاء ولعلي أستطيع إقناعها بخيانة كمال لها من خلال جميع مراسلاتنا التي لم يذكر اسمها فيها إطلاقا وكان يصرُّ أن لا علاقة له بأية امرأة أو فتاة أخرى قبل تعارفنا بمدة قريبة على الأقل، فقد شغلته الثورة عن كل شيء لكنه لم ينكر علاقاته القديمة، وفي الحقيقة كنت أشعر بالغرور والزهو كلما أكَّد لي بأنني حبه الوحيد وأنه لم يكن ليحبني ويثق بي لولا حواراتنا الطويلة التي اكتشف من خلالها صدقي وشفافيتي في سرد تفاصيل حياتي، وبالغ في التعاطف معي عندما حدثته عن زواجي الفاشل ومن ثم طلاقي وسكني مع طفلتي في بيت أهلي وطريقة أهلي في معاملتي بسبب تلك الظروف، وكان يردّد دائما:

- الحياة تجارب يا حبيبتي والمستقبل لنا..

كان كمال من وجهة نظري مثالاً للرجل الذي تغفو المرأة في أحضانه وهي جد واثقة أنها امتلكت الكون المرصع بالنجوم، فصدقه ورجاحة عقله، إخلاصه للثورة حدّ التفاني كلها عوامل جعلته يبدو لي المخلص الوحيد لآلامي وأحزاني وخيباتي المتلاحقة. كان الضوء المنبعث من ثقب صغير في دهليز ماض مشوش وحاضر يثقبه الرصاص، لذلك كنت أشفق عليه مني

ومن خيبته بي عندما يكتشف مرارة الحقيقة. نعم لقد صرت النقطة السوداء في حياته الناصعة. اتصلت بسمر وقلت لها راجية:

- أتوسل إليك يا سمر أعفني من مهمة لقاء كمال فها أنت قد عرفت عنه كل شيء وثبت لك بالدليل القاطع أنّه خائن، ابتعدي عنه واعتبريه ماضياً، والتفتي إلى مستقبلك لا بد أن يرسل الله لك من هو أفضل منه.

- ها ها ها كم أنت غبية يا روان، لن أترك هذا التافه قبل أن أنتقم منه لقد لعب بمشاعري وعليك مساعدتي ألست صديقتك الحبيبة؟

- صدقيني أنت بالنسبة لي أهم منه، ولكني لا أحّب المشاكل لو كنت مكانك لتركته بعد كتابة رسالة أضمنها كل الشتائم التي يستحقها، ثم احذف كل ما يتعلق به كي أنساه نهائيا.

- اسمعي روان، اطلبي عنوانه وحدّدي معه موعداً ولا تحاولي اللعب معي. أقسم بالله ستندمين إنْ فكرت بخداعي فأنا وقت الجد داهية وأحسن الانتقام من أعدائي.

- لا بأس الليلة أكتب له ونتفق.

- برافو يا شاطرة، أنتظر منك أخباراً مفرحة وإذا وافق على اللقاء وكتب لك عنوانه سأهديك أجمل زجاجة عطر مكافأة لك تتعطرين له عند

ذهابك إليه في الموعد الرومانسي كوني أنثى حقيقية، ها ها ها ها كم أنت طيبة يا حبيبتي.

بعد أن اغلقت سمر الهاتف شعرت برعشة غريبة تسري في جسدي، ففكرة اللقاء رغم مخاطرها تجعل قلبي يخفق بشدة إذْ سأكون وجها لوجه مع كمال بعد أشهر من التواصل الجاف على الإنترنت، أخيراً سأراه وأتابع حركات أصابعه التي كانت تكتب لي أجمل الكلام، سأتابع حركة شفاهه حين يقول لي (أحبك)، أواه يا حبيبي كم أنا بشوق إليك، سألتقيك وليكن من بعدها الطوفان ولتذهب سمر إلى الجحيم.

خرجت من غرفتي مبتسمة عانقت زينة أمام دهشة أمي ثم ذهبت إلى الحمام وقفت أمام المرآة طويلا، نعم أنا جميلة رغم شحوبي وأستحق حبَّ كمال، وتليق بي الحياة، تأملت قسمات وجهي الدقيقة وكأنّني أراها لأول مرة، لون عيوني بني مائل إلى الخضرة، حاجباي مرسومان بعناية، فمي شهي يطل من بين كرز شفاهه أسنان عاجية مرصوفة ككوز ذرة، رفعت شعري الأسود الطويل إلى الأعلى ثم تركته ينسدل على كتفي بحرية، ابتسمت ابتسامة رضا قبل أنْ يعاودني العبوس كلما فكرت بضبابية الواقع والنتائج المحتملة لذلك اللقاء.

أرسلت له وردة حمراء منداة ثم كتبت له:

- سألتقيك أخيرا يا حبيبي اكتب لي العنوان مع الساعة والدقيقة وسأكون على الموعد تماما وأنا بكامل لهفتي.

- ما أسعدني بهذا الخبر يا حبيبتي وأخيرا؟ ولكن رجاء كوني حذرة جدا احفظي العنوان جيدا في ذاكرتك ثم قومي بحذفه من حسابك ولا تخبري أحدا عن الموعد مهما كانت ثقتك عالية به، فالمسألة مسألة حياة أو موت، والأفضل أنْ لا تأتي فور خروجك من البيت، اذهبي إلى السوق أولاً ثم تابعي الطريق وحاولي الانتباه إن كان هناك من يتبعك، وإنْ لاحظت ما يريب غيِّري طريقك ولا تأتي إليَّ.

- لا تخف يا كمال فأنا غير مطلوبة للأمن، ولا أظن أنني مراقبة، لن أذهب إلى السوق بل سأشرب فنجان قهوة في بيت خالتي، سأخبر أمي أنني ذاهبة إليها كي لا تكثر من اتصالاتها وكي لا تفكر بمرافقتي.

- أعتمد عليك وأكرر انتبهي جيدا ولا تورطيني يا حبيبة رجاءً فأنت تعلمين أنني مطلوب لأكثر من جهة أمنية واسمي على الحواجز كلّها. كتب لي كمال العنوان بدقة نقلته على ورقة بيضاء ولم أقم بحذفه خوفا من غضب سمر.

كنت أشعر بالفرح والسعادة وأنا أهم بالخروج من البيت باتجاه موعدي مع كمال رغم توجسي مما سيحدث وشعوري العارم بالذنب تجاهه، ودّعت زينة ولوحت لأمي، كانت في المطبخ تعد طعام الغداء لأبي قبل عودته من محله، فخرجت مسرعة قبل أنْ تلحظ اضطرابي وتوتري وتنتقد أناقتي غير الاعتيادية، فقد لبست فستانا أبيض طويلاً تزينه بعض الورود الحمراء وحذاء أبيض بكعب عال وحملت حقيبة بيضاء، وكنت أضع أحمر شفاه بلون الكرز فغدوت مثل عروس في أول أيام زواجها..

أحرقت لساني أثناء ارتشاف القهوة الساخنة من فنجان أعدته لي خالتي وهي تحدثني عن أصوات القذائف التي لم تدعها تنام طوال الليل، وعن تفتيش منزلهم أول أمس وكيف اضطر أولاد خالتي للخروج باكرا قبل وصول الأمن إلى الحي، حدثتني عن ارتفاع أسعار المواد الغذائية والخبز، وبشرتني بمجاعة قادمة إذا بقي الحال على ما هو عليه، وعن ارتفاع أسعار البيوت وعنوسة البنات بسبب موت الشباب وهجرتهم، حدثتني عن جارتهم التي استلمت هوية ابنها وخبر وفاته في المعتقل بعد اعتقاله بعامين عن حرقة قلب سلمى التي اختفى خطيبها في ظروف غامضة، وعن صديق ابنها الذي انضم للجيش الحر في الغوطة، عن مولدة الكهرباء التي تعطلت ولم تجد من يصلحها، لم تتوقف خالتي لحظة واحدة عن الحديث تثرثر وتثرثر

وأنا شاردة ومرتبكة لم أسمع نصف ما سردته من أخبار، ثم قاطعت تدفق حديثها واستَأذنتها بالانصراف بحجة الذهاب إلى طبيب الأسنان، عانقتني بحب وطالبتني بزيارة أخرى في القريب العاجل، وقبل أن أخرج من الباب استوقفتني خالتي وقالت ضاحكة:

- بسم الله ما شاء الله أول مرة أراك بهذا الجمال هل من عريس على الأبواب؟

- لا والله يا خالة أنت ترينني جميلة من محبتك لي لكن لا جديد.

كنت التفت يمنة ويسرى ومرة التفت إلى الخلف، قلبي يخفق بشدة ويكاد يقفز من مكانه نزلت من السرفيس قبل محطة واحدة من العنوان بعد المرور على ثلاثة حواجز أمنية ورحت أحثّ السير بخطوات مسرعة لم ألحظ أي شيء غير اعتيادي في الشوارع التي كنت أعبرها، الباعة يصيحون على بضاعتهم، بعض النسوة يتسوقن من سوق خضار مررت بجانبه، طابور طويل أمام كوة بيع الخبز، أصوات اشتباكات بعيدة، صفارة شرطي المرور، كان كل شيء يوحي بالأمان لكني كنت أرتجف خوفا كشمعة أمام فتحة هوائية. نزلت ستَّ درجات حتى وصلت باب الشقة، وقبل قرع الجرس فتح كمال الباب وأشار إليَّ بالدخول ثم مدّ رأسه وجزءًا من جسده خارج

الباب التفت يمنة ويسرة ثم أحكم إغلاقه بأربع مزالج فوق بعضها البعض ثم تقدم باتجاهي فاتحاً ذراعيه وهو يردد:

- وأخيرا يا حبيبتي.

كدت أسقط على الأرض من فرط النشوة عندما احتواني بين ذراعيه وأحاطني بحرير عطره الساحر أول مرة في حياتي أشعر بهذا الدفء الذي أوقد النار في جسدي فتوهجت ثم ذبت بين يده كقطعة زبدة وانصهرت شفاهي بين شفتيه، أحطت رقبته بذراعي درنا معا دورات عدة تشبه الرقص. كم رجوت الزمن أن يتوقف وتموت عقاربه عند هذه اللحظات المفعمة بالنشوة والهيام، وفجأة وبحركة عصبية تراجع كمال إلى الخلف وأدار رأسه نحو المطبخ ثمَّ أمسك يدي وجرني خلفه قائلا:

- هيا إلى المطبخ لنعد القهوة معاً.

كنت أتابع حركاته مبهورة أتأمل أدق تفاصيله: شاب نحيل طويل القامة أسمر اللون، شعره بني أملس وطويل مشدود إلى الخلف، بربطة شعر سوداء، كان يلبس كنزة صوفية زرقاء اللون وبنطال جينز يميل لونه إلى الأبيض المصفر، لم تكن أظافره مشذبة، وتبدو أظافر كفه اليسرى أقصر من أظافر كفه اليمنى، فخمنت أن لديه عادة قضم الأظافر.

سألني كمال عن طريقي وكيف وصلت، بينما كنت مستغرقة بتأمله أحدق بحركة شفتيه المكتنزتين وأسنانه المصفرة التي تدل على أنه مدخن عتيق، بدا لي كمال هيبي في مظهره وهندامه وحتى في شكل شقته الصغيرة التي كانت تعج بفوضى الأشياء، مجموعة أوراق وكتب وملابس موزعة بإهمال هنا وهناك عدة فناجين قهوة فارغة، ثلاث منافض سجائر ممتلئة موزعة بين طاولة الكمبيوتر وطربيزة صغيرة أمام أريكة جلدية سوداء قديمة جلسنا عليها لاحتساء القهوة، وكان بين الفينة والأخرى يقول مع ابتسامة متواضعة:

- إيه والله أهلاً وسهلاً بحبيبة عمري روان..

فأجفل وأردّد بصوت مرتعش:

- أهلا بك حبيبي.

كنت قد نسيت سمر ومعرفتها بهذا اللقاء تحت وطأة انفعالاتي واضطراب مشاعري بين سعادة لا توصف وخوف من مجهول لا أعرف كنهه، وبين توجس ممّا قد يحصل لو فكر كمال بطريقة شرقية واعتبر قدومي إلى بيته موافقة ضمنية على ممارسة الجنس، فالرجل أي رجل يعتبر تلك الموافقة نصراً له، وقبول زيارته في بيته تشجيع صريح وقبول بنتائج تلك

الزيارة، ماذا لو فكر كمال بي بهذه العقلية وحاول إقناعي بمرافقته إلى السرير كأي رجل يعتبر المطلقة امرأة محرومة ومكبوتة وعليه إشباع رغبتها، وينسى تماما أنَّ المرأة مخلوق رومانسي تفكر بالحب أكثر من تفكيرها بالجنس وإشباع رغبات الجسد، وأن لديها قدرة خارقة على كبح جماح رغباتها، بدليل أن معظم الأرامل والمطلقات يحافظن على طهارة أجسادهن وإن لم يتزوجن بعد ذلك مطلقاً، بينما الرجل ما أن يصبح أرملاً أو مطلقا يبدأ بالبحث عن زوجة أو عشيقة بحجة رغبته الجنسية التي لا يمكن إغفالها.

كما أن بعض الرجال والنساء أيضا يعتبرون التحرر الذي طالما طالبت به النساء أن تعطي المرأة جسدها لمن يريده أو لمن تشتهيه دون ضوابط أخلاقية أو دينية، فجسدها ملكها وهي حرة في التصرف به ولا يحق لأحد محاسبتها فيصبح تبادل الجنس كشرب القهوة أو كوجبة طعام نتناولها على عجل.

وفي الحقيقة في ذلك اللقاء مع كمال تحت سقف واحد وفي لحظات مفعمة بالعذوبة كنت ضعيفة جدا ومستلبة إلى حد كبير، وكنت تحت تأثير الرغبة الجامحة جاهزة للالتحام به فقبلاته أثارت كل غرائزي التي لم يثرها أي رجل قبله، ولكني كنت على أهبة الاستعداد لضبطها كي لا أسقط في فخ الحرام وأعيش في ندم مدى الحياة، وقد أسقط من عين كمال وأفقد احترامه لي وثقته بي وربما اعتبرني عابرة سرير لا تصلح للارتباط والزواج.

أيقظني كمال من شرودي بصوت ولاعته عندما أشعل سيجارة جديدة ورشف رشفة من فنجانه ثم جلس خلف شاشة الكومبيوتر وراح يحدثني عن تقرير يقوم بإعداده عن الحواجز التشبيحية التي تعتقل الشباب لمجرد جرح أو كسر في بطاقاتهم الشخصية، أو ممن يشتبهون باسمه أو حركات وجهه، أو من نسي في هاتفه الجوال أغنية ثورية، وأسهب في وصف حاجز مهمته الأساسية الإذلال، فسرد لي قصة محام أوقفه عناصر الحاجز بسيارته فأغاظتهم أناقته ببدلة رسمية وربطة عنق ونظارات شمسية وساعة أنيقة، محام في طريقة إلى المحكمة لأداء واجبه، خلعوا نظارته الشمسية ورموها أرضاً وبكل أدب انحنى لالتقاطها فانهالوا عليه بالضرب والركل وشتموا أمه وأخواته ووصفوهنّ بأقذر الصفات بتهمته التكبر والتعالي وعدم إطاعة أولياء نعمته وكأنهم هم من يتدبرون أمر معيشته أو يصرفون عليه وعلى أسرته.

شربت ما تبقى من فنجان قهوتي وقلت له:

- هي عقد نقص في دواخلهم وتربيتهم يستفزهم من يشعرون أنه يفوقهم في العلم والغنى والأدب فيتفننون في إذلاله كي يحطموا معنوياته ويشعروه بتفوقهم عليه..

تابع كمال حديثه بجدية أكبر:

- طبعا هم لا يحتاجون إلى تهم من أجل إهانة المواطن لكنهم يلفقون أية تهمة لإقناع أنفسهم بأن ما يقومون به واجب هدفه الدفاع عن الوطن، الوطن الذي حكمه أسيادهم أربعين عاما بالنار والحديد وكم الأفواه وبأجهزة مخابراتية يفوق عددها عدد المستشفيات والجامعات هل هنالك حكومة مدنية تحترم نفسها تسلط عناصرها ورجال مخابراتها على رقاب المواطنين الذي يمضون أيامهم في الجري وراء لقمة العيش؟

تابع كمال حديثه بحماسة وغضب وكأنه في محاضرة وأمام جمهور عريض:

- هل تدرين يا روان ماذا فعل حافظ الأسد بحماه؟ والله لم أنس البتة أحاديث الحجي أبي محمد الحموي التي كان يسردها لوالدي همسا عندما كان يبيت عندنا كلما جاء من حماة لإجراء معاملة في إحدى الوزارات، كان فضولي يدفعني للوقوف خلف الباب واستراق السمع لمعرفة السرّ الذي يجعل الحديث هامساً إلى هذه الدرجة بينه وبين أبي، كنت صغيرا والفضول إحدى عاداتي السيئة التي رافقتني في كبري وقد عرفت أنَّ أبا محمد هو الناجي الوحيد من أسرته التي قتلها حافظ الأسد في ثمانينيات القرن المنصرم، وأنَّ نجاته كانت صدفة، إذ كان طريح الفراش في المشفى الوطني بعد إجراء استئصال للزائدة الدودية حين داهمت الدبابات الحي الذي يسكنه مع أسرته وأهله وارتكبت مجزرة فظيعة راح ضحيتها مئات الأبرياء أطفالا ونساء وكهولا.

لم توفر دباباتهم ورشاشاتهم أحداً بحجة التخلص من الإرهابيين يومها، وضجت وازدحمت السجون بالمعتقلين بعضهم تمَّ تصفيتهم داخل السجن وبعضهم الآخر مات إما قهرا أو بإصابته بالسلّ وغيره من الأمراض المميتة، ومنهم من استشهد تحت التعذيب، ويبدو لي أن التاريخ يعيد نفسه مع فارق بسيط: أن مجزرة حماه كان ينقصها التغطية الإعلامية التي لم تكن متوفرة في تلك الحقبة من الزمن حتى محطات التلفزة كانت محلية، لذلك لم تصل صرخات المظلومين إلى الرأي العام فقتلوا واعتقلوا وذبحوا في سجن تدمر آلافاً دون أن يحاسبهم أحد على ما ارتكبته أياديهم من إجرام بحق الأبرياء..

نظر كمال إليَّ وقد طفرت دمعة من عينه ثم قال قبل أنْ يجهش بالبكاء:

- آه يا روان قلبي يحترق على سوريا، ما من أمل بنجاتها من الجلاد إلا بالكفاح، وإلا فإننا سنقول لاحقا كانت اسمها سوريا..

جمدت في مكاني وكاد قلبي يتوقف عن النبض عندما سمعت طرقا قويا على الباب مع قرع الجرس بإلحاح ومحاولة لاقتحام الشقة، ثم سمعت أصواتهم يصرخون:

- افتاح الباب ولك عرصة..

انتفض كمال وهب واقفا من مكانه اصفر وجهه وراح يرتعش وهو ينقل نظراته بيني وبين الباب، لم تكن نظراته ذاتها التي استقبلني بها بل نظرات قاسية، غاضبة معاتبة ومليئة بالاتهام والتخوين، ولم يكن لدي الوقت والظرف المناسبان للشرح والتبرير، فقد عقد الخوف لساني وشلَّ حركتي، فتسمرت في مقعدي دون أي حركة.

بعد خلعهم الباب ودخولهم الهمجي لم يعد هناك أي مجال لفعل أو قول شيء، وإلا لكنت دافعت عن نفسي وأقسمت له أنني بريئة وضحية مثله، وأنني صادقة بحبي له واهتمامي به، لكن لا مناص الآن من الاستسلام والتسليم بأننا وقعنا معا في فخ الخديعة وأن من كانت تمثل دورها الثوري بإتقان ما هي إلى مخبرة وعميلة للنظام هدفها الوحيد الإيقاع بالنشطاء عن طريق الفتيات الساذجات أمثالي، فات الأوان وها نحن نأكل الطعم ونقع في المصيدة. دورية مشتركة لأكثر من فرع مخابرات عددهم يتجاوز العشرة مدججين بالسلاح والعصي انهالوا على كمال بالضرب والركل وهم يستهزئون به ويكيلون له الشتائم وهو على الأرض مثل ذئب جريح يكتم صرخاته ويتوجع بتحد، أحاط به العناصر ورفعوه عن الأرض ثم قلبوا كنزته الزرقاء على رأسه وشدو يديه إلى الخلف قبل أن يسحبوه إلى الباص المتوقف في مدخل الحي، ثم قام آخرون بمصادرة الحاسوب وكل ما وجدوه من أوراق وأقراص مدمجة وذواكر، وأما أنا فكانت أربع صفعات كافية كي

تنسيني يوم مولدي. شدني أحدهم من شعري وسحبني إلى الخارج وهو يقول:

- ماذا كنت تفعلين عند هذا الكلب يا عاهرة؟ هل كنت تقيمين الصلاة؟ هاي الحرية الي بدكن ياها؟

كانت لحظات عاصفة هبت رياحها فاقتلعت جذور الأمان، خلت أنني أعيش كابوسا ربما أستيقظ منه بعيد حين، لكن الصفعات التي انهالت على وجهي والضرب المبرح على ظهري كانت تؤكد أنَّ ما يحصل واقع صارخ لا مفر منه. خلف النوافذ وفي زوايا الشرفات تمترس الجيران خلف رعبهم كلٌّ تحجر في مكانه وراحوا يتابعون تفاصيل المداهمة والاعتقال دون أنْ يتجرأ أحد منهم على السؤال لمعرفة ما يحصل أو للدفاع عن أبرياء قد يكونون هم في موقفهم لاحقا لكن خوفهم وإحجامهم عن تقديم يد العون له أسبابه المقنعة فمن يتدخل سيكون مصيره الاعتقال وقد يموت داخل زنزانته مع تلفيق جملة من التهم أقلها حمل السلاح أو النيل من هيبة الدولة، يا الله كم مرة كنا مثلهم وأخذنا دورهم وكم مرة كنت وأسرتي شهوداً صامتين متحجرين لاعتقالات حدثت في حينا كنا أكثر جبنا من هؤلاء إذ لم نقترب من النافذة او الشرفة بل كان أبي يسدل الستائر ويخفض صوت التلفاز ويجبرنا على الجلوس في المطبخ لكونه بعيداً عن الشارع حتى تهدأ جلبة الأصوات ويذهب العناصر بسياراتهم ولا أنسى كلمة أبي الشهيرة: ابعد عن الشر وغنيله.

(٩)

ليتنا نستطيع العودة إلى الخلف وتغيير مسار حياتنا لكنا زرعناها بالورد ولوناها بألوان الطيف وعطرنا أطرافها بالفرح، كنا اقترحنا أحبتنا أوطانا لنا، كنا تعلمنا أن العمر مثل ماء النهر لا يعاد مرتين، لكننا نولد على هذه الدنيا مسيرين ترسم معالم خطانا الأقدار..

وصلت نتائج فحص الكتلة الورمية التي استأصلتها الطبيبة قبل شهر مع مبيضي الأيمن، أحضرته أمي من المختبر ثم عرجت على الدكتورة منى قبل أن تعود إلى البيت. كانت تتصنع الابتسام واللامبالاة، سألتها بلهفة:

- طمنيني ما هي النتيجة؟

- لا تقلقي الأمور بخير يا روان.

- رائع الكتلة خالية من السرطان إذا؟!

- ورم سرطاني لكنه من النوع الحميد الذي لا ينتشر وها قد خلصت منه وانتهت المشكلة.

- سرطـــــــــــــان أووووووه يا الله لماذا؟

مشت أمي باتجاهي ضمتني بعنف وأجهشنا ببكاء طويل قبل أن ترفع رأسي بيدها وتنظر في عيني مباشرة ثم قالت:

- اسمعي روان لقد كتب الله لك عمرا جديدا وعليك البدء بترتيب حياتك بشكل جيد وكأنك ولدت الآن، انسي كل الماضي وكل ما مرّ بك من عثرات ما زلت صغيرة وأمامك متسع من الحياة. بعد إنهاء جرعات الكيماوي عليك أن تخرجي من سوريا، سافري إلى أي مكان بعيداً عن هذا المستنقع الآسن الذي كان اسمه سوريا، هؤلاء لا يرحمون، والبلد ذاهب إلى الهاوية، خذي ابنتك وسافري لا تحرقي قلبي أكثر.

- جرعات يا أمي أحتاج جرعات كيماوية، متى ينتهى هذا العذاب، هل كتب علي الشقاء حتى الممات؟

- وحِّدي الله يا ابنتي فالمؤمن أشد بلاء..

يبدو أن الموت الذي حامت غربانه فوق جسدي بسبب الاعتقال الذي كاد يودي بحياتي إما بالسرطان أو تحت أحذيتهم القذرة جعل أهلي يغيرون سلوكهم معي ويقبلون ما كان من المستحيل القبول به، بل جعلهم يخططون لاستقلاليتي عنهم بعد أن كان المستحيل أقرب من فكرة البعد عنهم، لقد هزمتهم الظروف وأحنت هممهم.

- أغلقت أمي الباب خلفها وقبل أن أساوي جلستي على حافة السرير سمعت صوتها وهي تنوح وتندب حظها فليس هنالك أصعب على الأم من فكرة فقدان فلذة كبدها حتى ولو لم يكن ذاك الفقدان موتا، إذ ما زلت أذكر شكل جارتنا أم إحسان التي أصيبت بالشلل النصفي عندما أخبروها أن المخابرات الجوية اعتقلت ابنها من الجامعة وكان في سنته الأخيرة بكلية الصيدلة وظلت المسكينة على هذه الحال حتى أطلق سراحه بعد سنة من الاعتقال فزاد وضعها سوءًا إذ خرج ابنها بحالة نفسية سيئة جدا لا يتكلم ولا يواجه أحدا.

اعتزل الناس وظل يبكي ودموعه لا تفارق وجهه ولم يستطع أحد من أقاربه مساعدته إذ كان يرفض ولا يتقبل الحديث مع أحد وقد فهمت من ثرثرات الجيران أنهم اغتصبوه عدة مرات في السجن فخرج ذليلاً منكسراً ولم يحتمل ثقل العار الذي هدم مستقبله وأفقده ثقته بعدالة الحياة فانتحر بعدة علب دواء شربها لينهي حياة الذل بعد أيام قليلة من خروجه من المعتقل، ثم لحقت به والدته، إذ توقف قلبها كمدا وحزنا على زهرة شباب ابنها التي قطفها نظام الحقد بكل وحشية وذنبه أنه عاش في زمن الحريات المغتصبة.

تسعة أشهر مرت على ذكرانا الأليمة، ذكرى اليوم الأسود الذي تم فيه اعتقالنا أنا وكمال الذي لم أستطع معرفة أخباره سوى خبر قديم كان قد نشر على الإنترنت في ذات تاريخ الاعتقال، قرأته في عدة مواقع (اعتقال الناشط الإعلامي كمال عبد الله) لم يذكرني أحد في الخبر ولم يذكروا تفاصيل الاعتقال، نُشر الخبر بشكل اعتيادي كما تنشر جميع أخبار الاعتقالات والقتل، يتفاعل معه القراء مدة ثم ينسونه بمرور الأيام بعد أن تتراكم فوقه أخبار جديدة عن الموت السوري الذي لا يتوقف بكافة أنواعه، موت تحت ركام البيوت، موت برصاصة قناص، موت تحت التعذيب في المعتقل، موت في البحر غرقا، موت بقطع الرؤوس والصلب، تعددت الوسائل وموت السوري واحد.. واحد.

بعد تحريري من المعتقل الذي خرجت منه بصفقة تبادل بين الجيش الحر وجيش النظام بعد ثلاثة أشهر وعشرة أيام وقد غدوت شبح امرأة لا تشبهني البتة، فقد نخر المعتقل ملامحي وجسدي ونفسيتي وحولني إلى كومة عظام جافة، عدت إلى البيت، إلى ابنتي، إلى سريري ودفء المكان، أجفل أبي عندما رآني ونسي كل غضبه فعانقني وبكى بصوت مرتفع.

ربما أشفق علي وقد بدوت بملابسي الرثة وهزالي الشديد وشحوب وجهي وشعري المتشابك كمتسولة عجوز، ثم سحبتني أمي من حضن أبي

وراحت تعانقني وتشدني إلى صدرها وتتحسس كل جزء من جسدي، تريد التأكد من أنني لم أفقد أي جزء من جسدي في السجن، لم تكن تدرك في تلك اللحظة أنني فقدت كرامتي وطهارتي والجزء الحي من روحي فعدت إليهم نصف ميتة. اقتربت مني زينة بحزن وحذر. أشبه أمها ولا أشبهها لكنها عرفت صوتي عندما ناديتها باسمها وحدقت بي مطولا وعندما عانقتها فقدت وعيي من شدة الانفعال وصحوت بعد دقائق فوجدت زينة تجلس قربي على الأرض وفي يدها ليمونة. بعد أيام بدأت أسترد القليل من عافيتي، فكثرة الضيوف والاتصالات لم تعطني الفرصة الكافية للراحة. كان بعض الزوار يأتون من محافظة بعيدة ولم يسبق أن تعارفنا من قبل، لكنهم كانوا يأتون للسؤال عن بناتهم المعتقلات فيسألون بلهفة إنْ كنت قد التقيت بهن في السجن.

لم تعد سمر تتصل بي بأية وسيلة اتصال، ويبدو أنَّها ارتاحت بعد تحقيق مرادها وتنفيذ مخططها بالتعاون مع المخابرات التي دستها في صفوف الثورة كما دست غيرها من ضعاف النفوس وعبدة المال للقيام باغتيالات لعدد من قادة الجيش الحرّ في الأماكن المحررة.

لقد جعلت مني سمر فخًّا ومصيدة للإيقاع بكمال فأوقعتنا معا، الله وحده يعلم ماذا حل بكمال هل ما زال على قيد الحياة أم أنه مسجى بين آلاف الجثث التي كومتها المخابرات في مقابر جماعية أو في باحات المشافي دون رادع من ضمير، وما يعزيني أنني لم ألمح وجه كمال الحبيب بين آلاف الصور التي هربها القيصر الذي انشق عن الشرطة العسكرية إلى خارج سوريا. ويحي يا كمال ماذا فعلت سذاجتي بك، كم كنت على حق بحذرك من كل شي، وكم كنت أنا غبية وجبانة حين أذعنت لقلبي وشرور سمر فبادلتك الحب بالسجن وسلبت منك حريتك وحياتك، لكن صدقني لقد دفعت أنا بالمقابل ثمن ذلك التخاذل من حريتي وصحتي وشرفي فما عانيته في المعتقل يكفي للتكفير عن ذنوبي التي لم أرتكبها عمداً، آه يا كمال كيف أصف لك ما مرّ بي؟ لقد أجبروني على ضرب زملائي في السجن وما زالت صرخاتهم تعشش في وجداني وتسلب مني الراحة والسلام.

كنت جلادهم وكانوا جلادين لي. هكذا أرادوا أنْ يحولونا إلى مجرمين واحدنا يضرب الآخر بلا رحمة، ولكنهم لم يستطيعوا جعلنا نتلذذ بالتعذيب فكل واحد منا كان يتمنى لو يعانق الآخر، يطبب جروحه وآلامه، يبكي على صدره، يعتذر منه، فكانت نظرة واحدة إلى بعضنا البعض كافية للاعتذار عن كل ما لا نستطيع ردّه عن واقع مزرٍ وسجن عفن أكل حشاشة قلوبنا

جميعا. آه يا كمال كيف تحولت أغصان الزيتون التي كنا نحملها ونلوح بها للحرية إلى خيزرانات تحفر ظهورنا أثلاما فينزّ الصديد والوجع من كل خلية في أجسادنا، نستنجد، نصرخ فيعود الصدى صفعة في وجه الحقيقة ولا من مجيب. خسرنا كل شيء حتى الحرية التي طالبنا بها.

خسرنا سوريا بفسيفساء سكانها وتنوعه. متى يا كمال كنا نفرق بين سنة وشيعة؟ أو بين مسلم ومسيحي؟ ألم تكن الكنيسة تجاور المسجد؟ لقد حول الغرب دولنا العربية إلى أحجار شطرنج يحركها كيفما شاء وأصبحت سورية حلبة مصارعة تتصارع على تقسيمها كل الدول بحجج مختلفة أولها محاربة الإرهاب أليس داعش هم الذين زرعوها في المنطقة بالتعاون مع النظام لكي يشرعنوا حربهم القذرة، أليست داعش والنظام هم بالتالي وجهين لعملة واحدة؟ لماذا إذا لم يسمع العالم صرخات أطفالنا الذين قتلهم السّفاح بطائراته وبراميله ومجازره الكيماوية وغير الكيماوية، ألم تصلهم الإحصائيات من المنظمات الإنسانية والحقوقية بعدد سجناء الرأي في السجون والذي استشهد منهم الآلاف تحت التعذيب؟ أليس ما فعله بشار الأسد بنا يندرج تحت مسمى حرب الإبادة الجماعية؟

كل تلك البراهين والأدلة على إجرام النظام لم تهز ضمير العالم فيتحرك لمساندة الشعب وإسقاط النظام، بل زرعوا داعش بيننا كي يكتمل المشهد،

فراحت بكل همجية تذبح وتقتل وتحز الرؤوس وتكفر الناس الأبرياء فتعتقل وتعذب وتقيم الحدّ باعتبارها دولة إسلامية، أي إسلام هذا الذي يتبعونه يبيح ذبح الناس كالخراف، أقسم لك يا كمال أنني لا أكاد أصدق أن كل هذا يحدث في دولة مدنية مثل سوريا. أحد الشبان صلبوه وكتبوا ورقة علقوها على جثته تم إعدامه لأنّه يدخن.. يدخن تصور يا كمال يخسر شاب عمره لأنّه يدخن؟ ترى أما كان بالإمكان معالجة القضية بدون ذبحه؟

ضاعت بلادنا يا كمال وكان اسمها سوريا، فمعالم الصراع فوق أرضها يشبه ما حدث في أفغانستان، ها هي اليوم طائرات التحالف الدولي وروسيا تساعد بشار الأسد وتقصف المدن السورية فتترك خلفها عشرات الضحايا من الأطفال والشيوخ والنساء. وها هي إيران وحزب الله بكل عتادهم وأموالهم يقدمون الدعم للنظام كي يستمر في قتلنا والإبقاء على كرسيه منتصباً فوق أهرامات الجماجم والجثث.

(١٠)

مساكين أهلي للمرة الثالثة ينزحون فكلما استقروا في بيت جديد بأحد أرياف دمشق تقصفه الطائرات ويصبح التواجد في المنطقة خطرا عليهم، فيحملون ما تيسر من أمتعة خفيفة وكيس أدوية السكر والضغط والتهاب المفاصل ويغادرون إلى مكان أكثر أمنا، ويرفضون أي دعوة لترك دمشق.

فبعد زواج أختي ندى من زميلها في الجامعة استقرت في حلب ورجتهم أن ينتقلوا للعيش بالقرب منها، ولكنهم كانوا يزدادون إصراراً على البقاء في دمشق كلما سمعوا أخبار الاقتتال في حلب، بل ويرجون أختي أن تأتي للسكن في دمشق وأن تنقل أوراق تسجيلها من جامعة حلب إلى جامعة دمشق ولكن طالما الظروف في المكانين سيئة ظلَّ كل واحد منهم في مكانه يتنقل داخل المدينة التي يقيم فيها حسب نشرة القذائف والبراميل المتساقطة يوميا على الأحياء والمنازل، إذ إنّ الجميع في سوريا مستهدف فلا استثناءات على قائمة الموت، أو تحت سماء تعج بالطائرات الحربية السورية والروسية

والأميركية، أو على الأرض السورية المحتلة من عصابات النظام وإيران وحزب الله ومن يساعدهم من ميلشيات مستوردة بجنسيات مختلفة، لقد أصبح الموت بالنسبة للسوري الذي ظل متمسكا بأرضه وبتراب بلاده رحمة ورفاهية بعد التضييق الكبير من قبل النظام. عليهم فغلاء الأسعار فاحش وإيجارات البيوت مرتفعة بطريقة دنيئة، والرواتب التي يعاني الموظف الأمرَّين لاستلامها لم تعد تكفي ثمن الخبز والدواء، التغيير الديمغرافي أصبح واضح المعالم في دمشق، فقد تمَّ الاستيلاء على بيوت المهجَّرين وتقديمها بلا مقابل إلى مقاتلي حزب الله اللبناني وميلشيات أبو الفضل العباس العراقية بالإضافة إلى المشاريع الإيرانية التي تقام فوق أراض سورية بعد استملاك بيوت أصحابها وطردهم إلى أماكن بعيدة، لقد نعق الغراب فوق خراب سوريا وأكلت من لحم جثتها الذئاب.

(11)

أي صدفة قدرية تلك التي أعادتك لي؟ ترى أهي مجرد صدفة قذفها القدر على شواطِئ الدهشة أن ألمح وجهك الحبيب على شاشات التلفزة أثناء تلاوة خبر يتحدث عن إنقاذ مركب سوري تعرض للغرق بالقرب من الشواطِئ اليونانية، أم أن الحياة قررت الصفح عني وتغيير اتجاه أشرعتي لتأخذني إلى برّ الأمان؟ رأيتك يا كمال أقسم أني رأيتك وما زلت غير مصدقة رغم أنّي عدت لمشاهدة النشرة ذاتها مرات عدة، وفي كل مرة كنت أقترب من الشاشة أكثر وأحدق بوجهك الذي يظهر لعدة ثوان ثم يختفي فيخفق قلبي بشدة أحلق كفراشة، سعيدة أنا سعيدة بمقدار ما ذقته من عذاب، إذن أفرجوا عنك أخيرا وكتب لك النجاة والخروج من عمق الموت ومن سعير السراديب حيا؟!

لقد أنصفتني الحياة لا أحلام عندي بعد سلامتك إلا سلامة سوريا، أدرك تماما أننا لن نلتقي لكن يكفيني فرحا أن ظلمي لك لم يقتلك رغم العذاب الذي سببته لك، وكل ما أتمناه الآن أن تصل إلى وجهتك وتبدأ حياتك من جديد لأني مدركة تماما أن خروجك من سوريا دليل صارخ على أنك فقدت الثقة بجدوى البقاء على أرضها كما فقد الكثير من الثوار هذه الثقة فغادروها إلى المنافي البعيدة حاملين معهم حقائب الخيبة والخذلان، لا تجزع يا كمال فالمستقبل أمامنا ولابد وأن نعود يوما وعندها سنكون قد تعلمنا أن الصمت الطويل على الظلم الذي علمنا إيّاه الأجداد هو القوة الداعمة لجبروت الظالم الذي يمد في عمره ويزيد من قدرته على قتلنا، صدقني سنعود عندما يعود لسوريا اسمها وكرامة شعبها.

~ تمت ~